

روايات مصرية للجيب
أسطورة
الكاهن الأخير
ماوراء الطبيعة
١١

روايات
مصرية للجيب
٥٢٧٤٩

ماوراء الطبيعة
روايـــات تحبس الأنفـــاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

أسطورة الكاهن الأخير

الكاهن الأخير يعرف كيف يقاتل ، الكاهن الأخير يعرف كيف يتخفّى ، الكاهن الأخير يعرف كيف يتظاهر بالخرس حينًا وبالبلاهة حينًا ، الكاهن الأخير لا يثق بأحد .. لأن أعداءه لا يرحمون .. والموت جزاء أدنى خطأ .. ، الكاهن الأخير يتحداك .. فهل تقبل التحدى ؟!

المؤلف



د. أحمد خالد توفيق

العدد القادم : أسطورة البيت

الثمن فى مصر
ـــص

وما يعادله الدولار الأمريكى فى سائر الدول العربية والعالم

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
١٠ شارع كامل صدقى بالفجالة - القاهرة - ت ٩٠٨٤٥٥

١١

روايات مصرية للجيب

ما وراء الطبيعة

أسطورة
الكاهن الأخير

روايات مصرية للجيب

●

ماوراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

●

مصنَّف مصرى مائة فى المائة
لا تشوبه شبهة الترجمة أو الاقتباس
أو النقل عن أية قصص أوربية .

●

مراجعة لغوية

الأستاذ/ محمد شفيق عطا

●

إشراف

الأستاذ/ حمدى مصطفى

●

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع و النشر و التوزيع ـ المطابع ٨، ١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية
بالعباسية ـ المكتبات ١٠ ـ ١٦ شارع كامل صدقى الفجالة ـ ٤ شارع الإسحاقى بمنشية البكرى روكسى
مصر الجديدة ـ القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ ـ ٩٠٨٤٥٥ ـ ٢٥٨٦١٩٧ فاكس ـ 202/2596650 ج.م.ع

روايات مصرية للجيب

ماوراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس

من فرط الغموض والرعب والإثارة

11

الكاهن الأخير

بقلم :

د. أحمد خالد توفيق

الناشر

المؤسسة العربية الحديثة

للطبع والنشر والتوزيع

١٠ شارع كامل صدقي بالفجالة - القاهرة - ت ٩٠٨٤٥٥

مقدمة

دكتور (رفعت إسماعيل) أستاذ أمراض الدم المتقاعد غير المتزوج، الذى تحدّى كل قواعد الطبّ ودراسات الشيخوخة وعاش حتى هذه اللحظة - برغم أمراضه العديدة - كى يحكى لكم ذكريات شبابه .

مريض بالذبحة الصدرية .. نعم ..

معتل البنيان .. عصبى المزاج .. نعم ..

مصاب بتصلب الشرايين .. نعم ..

لكنى أحتفظ لنفسى بشىء واحد لم أفقده بعد ، ألا وهو ذاكرتى التى تحتفظ بكل شبح وكل مسخ وكل كابوس صادفنى فى رحلتى الطويلة التى أفنيتها بين المقابر والقصور المسكونة والمستنقعات التى تجوبها الشياطين ...

لم أنس شيئًا ...

ولكم سأحكى كل شىء بلا تردد ..

لأنكم أصدقائى الوحيدون ، وآخر من بقى لى فى هذا العالم ..

لحظة واحدة حتى أخفض صوت (التلفزيون) بعدها أعود لكم كى أسألكم عن القصة التى أحكيها اليوم ...

هل تحبون قصص مصاصى الدماء فأحكى لكم أسطورة الشاحبين ؟

أم تحبون حكايات السحرة فأحكى لكم أسطورة الساحر الأسود ؟.. أم أنتم مغرمون بالنباتات الشيطانية فأحكى أسطورة النبات المنسى ؟

... أراكم سئمتم الرعب وتريدون بعض التغيير ..

ولم لا ؟.. سأحكى لكم اليوم قصة لا رعب فيها .. ولكنها مفعمة بالغرابة وكل ما فيها يتحدى المنطق ...

لقد قابلتم - فى قصتى الثامنة على ما أذكر - الثنائى المتماثل (سالم) و (سلمى) وهما ضيفان على حكاياتى، لكننى أحبهما برغم كل شىء ..، واليوم تقابلون ضيفًا جديدًا هو (الأخرس) .. لا تندهشوا !.. فهذا هو اسمه الذى كان نعته يومًا ما ..، أما اسمه الأصلى فهو (هن-تشو-كان)، وأعتقد - وأنتم توافقوننى - أن (الأخرس) أسهل لفظًا وإن كان أقل أناقة من الاسم الأصلى لهذا الفتى ..!..

ستكون رحلتنا طويلة حقًا ..

وستعرفون السبب بعد قليل ..

★ ★ ★

١ ـ الزهرة الزرقاء ..

كان (هن ـ تشو ـ كان) زهرة زرقاء ...
هل رأى أحدكم زهرة زرقاء ؟!..
هناك زهور حمراء وبيضاء وبنفسجية .. لكن (هن ـ تشو ـ كان) كان زهرة زرقاء ..
هكذا قال له الكاهن الأكبر وهو يضفّر له جدائله الطويلة المنسابة :
ـ « أنت يا (هن ـ تشو ـ كان) زهرة زرقاء بين ثلوج (التبت) .. إن الزهور الزرقاء ساحرة الجمال نادرة كالياقوت ، لكن أحدًا لا يفهمها .. والزهور الأخرى تحسدها .. ، لهذا ـ إذا أنت وجدت زهرة زرقاء ـ لا تنتظر أن تكون سعيدة .. » .
نعم .. كان (هن ـ تشو ـ كان) زهرة زرقاء ..
ومن هنا تبدأ قصتنا ..

★ ★ ★

ثلوج (التبت) العاصفة .. والظلام .. وحيوان (الياك) ذو الفراء الكث الدافئ .. والدير الجاثم فوق أكداس الجليد ..

لا تذكر متى ولا كيف وجدت نفسك فى ذلك العالم ، لكنك ـ حتمًا ـ دخلته وأنت بعد طفل مذعور شاحب الوجه متلاحق الأنفاس ، تمشى بخطًا مرتجفة متشبثًا بذيل عباءة أمك وهى تتقدم إلى الكاهن الأعظم المتربع القرفصاء على صخرة (النرفانا) :

ـ « هو ذا ابنى أيها الكاهن الأعظم .. وكنت قد نذرته للدير لو عاش حتى يرى عشرة فصول شتاء .. » .

هل كانت تأنكم الجمرتان المتقدمتان هما عيناه ترمقانك فى اهتمام من تحت حاجبين كثّين كفراء (الياك) ؟..

ـ « اقترب يا (هن ـ تشو ـ كان) .. » .

كيف عرف هذا الرجل اسمك ؟.. إن أحدًا لم يخبره به !..

ـ « أنت لم تعد (هن ـ تشو ـ كان) .. بل أنت الزهرة الزرقاء .. غريب مثلها .. نادر مثلها .. جميل مثلها .. حزين مثلها .. » .

وعلى رأسك مسح وحك أنفة الضخم البارد بأنفك الأحمر الدافئ محييًا ..

عندئذ عرفت أن هذا الدير هو بيتك وغدك ..

وعرفت أن (النافاراى) ستكون فلسفة حياتك ..

★ ★ ★

يقول الأخ (ميانج) :

- « عندما تغرب الشمس وتلطخ دماؤها ثوب المساء الأزرق ،.. عندئذ يبدأ فجر (النافاراى) .. » .

★ ★ ★

وعلى ضوء الشموع كان (هن - تشو - كان) يدرس الـ (بهاجافادجيتا) الكتاب الذى يربط البوذية بالهندوك، فى حين يجلس أمامه الكاهن الأعظم يحسو الشاى بالزبد ويصحح له ألفاظه .. ويجيب عن أسئلته :

- « هل نحن بوذيون أيها الأخ الأكبر ؟ » .

- « لسنا بوذيين » .

- « هل نحن هندوس ؟ » .

- « لسنا هندوسًا .. » .

- « إذن نحن كونفوشيوسيون .. » .

- « ولا هذا يا بنى ... » .

- « إذن من نحن ؟.. » .

تتسع عينا الصغير فى حيرة بريئة .. إذ يجيبه الكاهن فى رزانة وتؤدة :

- « نحن (نافاراى) يا بنى ... » .

ويحسو جرعة أخرى ويغمغم :

- « نحن نأخذ أفضل شىء من كل شىء ...، لسنا سلبيين كالبوذيين .. ولا عبدة أبقار كالهندوس .. ولا غارقين فى فلسفة غامضة كالكونفوشيوسيين .. » .

★ ★ ★

يقول الأخ (ميانج) :

ـ « لماذا تحرق النار ؟.. لأنها نار !..، لماذا يطفئها الماء ؟.. لأنه ماء ..!..، لماذا يرتوى به النمر ؟.. لأنه نمر !.. » .

تتسع عينا الصغير أكثر .. ويهمس :

ـ « لا أفهم ... » .

يبتسم الأخ (ميانج) فى رزانة .. ويربّت كتفك :

ـ « لكنك ـ يومًا ـ تفهم .. وعندئذ تكون (نافاراى) حقيقيًا ..! » .

★ ★ ★

وتهب العواصف الثلجية ..

ويخرج الرهبان وسط الثلوج حافيى الأقدام لا يحملون سوى عصيهم ويقفون فى مهب العاصفة يتكاثف الثلج فوق عوارضهم وأنوفهم ، لكهنم لا يتحركون ولا يرتجفون ..

تصطك أسنانك وتفقد الإحساس بأناملك التى تحترق أعصابها لكن الأخ (ميانج) يهمس لك :

ـ « إن الطبيعة لا تؤذى أطفالها .. ثق بها ودعها تحنو عليك .. » .

لكنك ترتجف .. ترجف .. وتشعر أنك تموت ..

- « (النافاراى) لا يشعر بالبرد أبدًا لأنه يملك ناره الداخلية .. » .

وبعد ثوان تشعر أنك فى حال أفضل .. وتزول الزرقة المشئومة عن ساقيك وأطراف أناملك ..، ها هى ذى الحرارة الداخلية التى يتحدثون عنها تسرى فى أجزاء جسدك ..

- « إن الكون ليس سوى ما تعتقده فيه .. أغمض عينيك وتخيل شمسًا حارقة فى صحارى المغول وقافلة جمال .. » .

تغمض عينيك وتحاول .. تحاول .. تحاول ..، الأمر صعب لكنك تريده بعمق ..، وفجأة يتصايح الرهبان بصيحات الإعجاب والانبهار ..، ويدنو منك الأخ (ميانج) ليمسح جبينك .. ويهتف :

- « لقد فعلتها !.. إن العرق يملأ جبينك ! » .

وعلى كفه تجد أربع قطرات ماء تحولت إلى أربع ندف ثلج بعد ثوان !

لحظتها عرفت أنك ستكون منهم يومًا ما ..

★ ★ ★

أما الأخ (وين - بياو) فكان يثير دهشتك بخاصية الارتفاع فى الهواء حين يصل إلى حالة (النرفانا) الكاملة ..، كان ينظر للأرض فى تركيز وقد قطب جبينه .. ثم فجأة ترتفع قدماه عن الأرض ببطء شديد قامة أو قامتين وهو فى غيبوبة عميقة ..



أما الأخ (وين — بياو) فكان يثير دهشتك بخاصية الارتفاع فى الهواء حين يصل إلى حالة (النرفانا) الكاملة ..

ثم إنه ينزل إلى الأرض ببطء بعد دقائق، ويحدثك بكلمات غامضة يقولون إنها (أسرار الكون) ..

وكنت تتساءل عن الكيفية التى يصل بها المرء إلى هذه الدرجة العالية من الشفافية .. فكانوا يقولون لك :

- « هو مستو عال جدًا من النقاء لا يصله سوى قليلين، والسرّ لا يفصح عن نفسه لكنك ستجد نفسك محلقًا ذات يوم .. فقط إذا ما تخليت عن ماديتك .. » .

★ ★ ★

كانت عضلاتك تتكوّر، وصوتك يزداد خشونة، وفوق شفتك العليا ازدهر الزغب كنسيج عنكبوت استقر هنالك ..

كانت قوى غريبة تسرى فى عروقك، وثمة روح مجنونة ثائرة تحاول الخروج من جسدك ..

يومها قادوك إلى الكاهن الأعظم المتربع داخل الدير وحوله الشموع .. ليقول لك وهو يرشف الشاى بالزبد :

- «مرحى .. ها أنتذا قد صرت رجلًا ، وعليك أن تتعلم كيف تكون (نافاراى) حقيقيًا ، ولكن - يا بنى - أنت تعرف أن أسرارنا هى سلاسل من الفولاذ تشدّنا لهذه الأرض .. ومتى تلقيت أسرارنا ربطت نفسك ما حييت بهذا الدير .. » .

ثم تقلص وجهه فى شىء من القسوة وأردف :

- « .. فهل أنت حقًا راغب فى الحياة هنا أبدًا ؟! » .
رهبة الاختيار والمصير الذى تقرره كلمات .. وعجزك عن الكلام لأن لسانك انحشر فى فمك .. ثم - بعد دقائق - همست :
- « نعم ..! » .
- « أعد القول ..! » .
بصوت أعلى هتفت :
- « نعم ..! » .
لم تكن تعلم شيئًا عن الغد .. لكن العالم الخارجى كان غامضًا مسربلًا بالظلال خاليًا من كل ما يجذبك إليه ، والحقيقة الوحيدة المؤكدة هى أنك تحب هذا المكان وتأنس لهؤلاء القوم وتعرف كل شىء عنهم .. أما هؤلاء الآخرون ..
- « فكر جيدًا .. إن (النافاراى) لا يتزوج ولا يلمس النساء .. » .
آه !.. كيف تتجاهل كل العواطف البكر المصطرعة فى شغاف قلبك ، والتى تتمنى أن تهديها يومًا لفتاة ما لها ضفيرة طويلة وقدمان دقيقتان ؟!.. إن هذا يبدو شاقًا ...
- « لا يحق لـ (نافاراى) أن ينجب حتى لا تسلبه ذريته إخلاصه وحكمته .. فهل حقًا تفهم مغبة ذلك ؟! » .

★ ★ ★

سأل أحد تلاميذ (جوتاما)(★) أستاذه :
- « كيف نتصرف يا سيِّدى إزاء النساء ؟ » ..

(★) الاسم الأصلى لـ (بوذا) .

قال (جوتاما) :

ـ «لاتروهن يا (أناندا) ..!.. لا تحدثوهن يا (أناندا)!».

وإذا تحدثت إليكم واحدة منهن فلا تكترث لما تقول يا (أناندا) !..

★ ★ ★

لمدة شهر كامل كان الكاهن الأعظم يدعوه ليعيد السؤال مع زيادة جرعة التصعيب فى كل مرة ...، وكانت الإجابة دائمًا :

ـ « نعم ... » .

قاموا بتجويعه أيامًا ووعدوه بالطعام الشهى إن قال لا ..، تركوه فى البرد والظلام ساعات ووعدوه بالدفء إن قال لا ..، حرموه من النوم يومين كاملين ووعدوه بتركه وشأنه إن قال لا ..

لكنه كان ـ حقًا ـ يرغب فى أن يظل معهم للأبد ..

وجاء اليوم الذى بدأ فيه رحلة (النافاراى) ، فوشموا ظهره بوشم التنين المجنح ، وثبتوا له قرطًا فى الأذن اليسرى ، وعقصوا شعره الطويل الأسود خلف رأسه كذيل حصان ، وارتدى البيجامة الزرقاء السماوية المميزة لهم ..

لقد صار يشبههم وإن لم يصر بعد منهم ..

★ ★ ★

يقول الأخ (ميانج) :

- « الحكمة ذبابة خضراء مهما حاولت اقتناصها بالجهد تفشل ، فإن أنت نسيت أمرها وجلست تتأمل ؛ حطت على ذراعك من تلقاء ذاتها ..! » .

ثم يقول لك وهو يشعل الشموع :

- « لكنهم يقتلون الذباب الأخضر وعليك أن تعرف كيف تحميه ! » .

وفجأة - دون توقع - تهوى صفعة ساحقة على خدك !.. أنت لم تر يده تمتد .. ولم تتوقع أية خيانة من هذا القبيل .. تنهض فى تحفز شاعرًا بالإهانة وخدك يتوهج بالدماء ..

- « هيًا !.. انتقم لنفسك أيها الضفدع ! » .

لم تتوقع هذا من الأخ (ميانج) الرصين الهادئ ... ثم إنك لا تجرؤ على رد ضربته فهو معلمك قبل كل شيء .. و .. صفعة أخرى لم تر نذيرًا لها ...

- « (النافاراى) كرامة .. وهو لا يترك أحدًا يصفعه ! » .

الغريب أنه لم يزل جالسًا فى نفس الوضع المتأمل الرزين كأنه لم يفعل شيئًا ..

صفعة ثالثة على خدك جعلت الدماء تملأ مقلتيك ، وفى حنق وثبت نحو الأخ (ميانج) لتمنعه من المزيد من الإهانات ..

- « بطيء جدًا أيها الضفدع ! » .

كذا يقول لك وهو يروغ بجذعه - دون أن يغير جلسته - من هجماتك المتتالية .. ينجنى يمينًا .. يسارًا .. خلفًا .. أمامًا .. كل ضرباتك تذهب فى الهواء كأنك تحاول سحق ذبابة خضراء دون جدوى ..

- « هيًا !.. حاول ، أسرع ! » .

وفى النهاية اندفعت بجسدك كله نحوه ، لكنه وثب - كالثعلب - جانبًا فارتطم رأسك بالجدار الصخرى خلفه ..

وبعد هنيهة رفعت وجهك المبتل من على الأرض ..

هل كانت دموعًا أم دماء ؟.. لا تذكر .. فكلاهما مالح الطعم ممتزج بالألم .. وكان هو جالسًا نفس الجلسة الرزينة الوقور كأنه لم ير شيئًا فضلًا عن فعله ..

تمرّ الدقائق لا يقطعها سوى صوت لهاثك ونشيجك ..

ثم سمعت صوته وهو يضغط على مقاطعه :

- « إن (النافاراى) لا يبكى .. بل يطلب مزيدًا من المعرفة .. » .

وتنهّد وهو يربّت على رأسك :

- « غدًا أعلمك كيف تتفادى صفعات الآخرين .. » .



٢ ـ نافاراى !..

عندما تغرب الشمس وتلطخ دماؤها ثوب المساء الأزرق .. عندئذ يبدأ فجر (النافاراى) ..

★ ★ ★

إنه المساء ...

فى صمت يتجه الرهبان إلى هضبة (النمور) لمزاولة تدريباتهم الشاقة على القتال ذلك ديدنهم منذ قرون ..

قال الأخ (ميانج) لبطلنا (هن ـ تشو ـ كان) :

ـ « فلسفة قتال (النافاراى) هى التحاشى .. لا تدع العدو يلمسك .. لا تدعه يتمكن منك ، لكن لا تكيل له الضربات .. لا تؤذه ...، وبعد قليل سيصيبه الإعياء أو الملل ويتركك .. » .

قال (وين بياو) وهو يربّت على ظهر الفتى :

ـ « قتالنا ليس كقتال الديكة .. بل هو كقتال النمور .. تحرش واستعراض قوة وتحاشى للاشتباك أطول فترة ممكنة .. » .

همس الفتى فى رهبة ، وهو يلهث بردًا وترقبًا :
- « وإذا كان خصمى هو الآخر حريصًا على تفادى الضربات لا أكثر ؟ » .
- « عندئذ لن يكون خصمك ..!.. إن القتال لا ينشأ بين شخصين يحاولان تفاديه .. » .

★ ★ ★

وبدأت التدريبات ..
فى الأيام الأولى شعر (هن - تشو - كان) أن هناك خديعة ما فى الأمر .. فلم يتجاوز ما يفعله - طيلة ساعات النهار - أن يلوح بذراعه يمينًا ويسارًا ويحرك قدميه فى خمسة أوضاع مرسومة كأنه راقصة ..
وكان نظيره فى التدريبات هو (جينغ - تشا) الذى ألحق بالدير فى ظروف مماثلة ..، إلا أن هذا الأخير كان من طينة أخرى .. فعيناه تلتمعان بالشراسة والوقاحة ، وجسده مشدود متوتر كالقوس ، وفى طبعه ميل للعنف لا يداريه .. والواقع أن الجميع أدرك أنه سيكون مصدر متاعب متجددة ، وأن تعليمه فن (التفادى) سيكون شاقًا لأنه لا يملك أدنى ميل لذلك ...
بعد أيام بدأت التدريبات تأخذ طابعًا غريبًا ..

كان على (الطلبة) أن يمروا عبر طابور من الرهبان الذين يحملون عصيًا ثقيلة يبغون أن يهووا بها على رءوسهم، وعلى الطلبة أن يتحاشوا هذه الضربات ولاتسلنى كيف ..!..

لقد كان درسًا مريرًا ..

عشرات الضربات العاتية انهالت فوق كتفى الفتى ورأسه ومعصمه .. وفى جزء أدرك أنه لا مزاح فى الأمر، وأن عليه ـ بالفعل ـ أن يبذل كل ما فى وسعه كى ينجو من الألم .. الألم الممض الذى يمزق أعصابه ويبعثر كرامته الفتية المتقدة ..

طفق ينحنى .. يتلوى .. يتمرغ فى الغبار .. ينثنى حول نفسه ..

وبرغم الألم كان يتقدم .. يتقدم ..

وحين وصل ـ أخيرًا ـ إلى نهاية الطابور كان قد نجا من عشرين ضربة قاتلة، وفى أعماقه بدأ يفهم شعور السحلية التى تتملص من مطارديها دون أن تجرؤ على مهاجمتهم ..

لكن الأخ (ميانج) كان بانتظاره .. وفى صرامة همس :

ـ « عُد للطابور ..! » .

ـ « لكنى خرجت منه لتوى !! » .

ـ « أطع ! » .

فأطاع ....

إلا أنه ـ فى هذه المرة ـ كان أفضل وأكثر حذرًا ..

★ ★ ★

قال الأخ (وين ـ بياو) للكاهن الأعظم :

ـ « إن الزهرة الزرقاء فى تحسن مطرد أيها الأب .. ولكن (جينغ ـ تشا) ما زال شرسًا كالذئب ، وحاول أكثر من مرة ضرب مهاجميه .. » .

التمعت عينا الكاهن تحت حاجبيه الكثين :

ـ « إن له روح نمر جريح ، لكننا سنروضها .. » .

وأشعل الشمعة التى أمامه لتضىء صفحات كتاب بالٍ قديم :

ـ « غدًا يدخلون قبو النيران الراقصة .. » .

★ ★ ★

قبو النيران الراقصة هو ذروة تدريبات (النافاراى) .. وبعده ينتهى صنع (النافاراى) الجديد وتبدأ مرحلة صقله ..

لقد صار (هن ـ تشو ـ كان) شابًا يافعًا وسيمًا يقف بقامته الفارعة وضفيرته تتدلى على ظهره، وثيابه الزرقاء المميزة .. جسده متوتر كمخالب القط .. وذقنه المربعة الحليقة توحى بقوة الشكيمة ..

كان ـ بالطبع ـ قد سمع عن هذا القبو ويعلم إلى حد ما ما ينتظره فى داخله .. لكنه لم يفشل قط فى شىء تمناه حقًا، وهو يتمنى حقًا أن يجتاز هذا الاختبار ..، وكان يعرف أن الكاهن الأعظم سيراقبه من فتحة سرية ..

قال الأخ (ميانج) فى لطف غير معتاد يثير التوجس فى النفس :

ـ « هو ذا النفق .. وكلنا اجتزناه قبلك .. فليس الأمر مستحيلًا .. » .

وابتلع ريقه مردفًا وهو يناوله قربة اللبن ليحسو منها :

ـ « لاتدع نيران ذهنك تخبو ثانية واحدة .. بل أبقها متقدة ذكية لأن الثانية التى تخبو فيها ستكون الأخيرة !! » .

★ ★ ★

تعالوا معى نر هذا الكابوس .. ولا تخافوا ما دمت أقودكم بنفسى ..

ما إن ينغلق الباب خلفك حتى يسود الظلام والصمت ..

لا ترى سوى ضوء مشعل خافت فى نهايـــة النفـــق ..
ولا تسمع سوى دقات قلبك الذى تدعو الله ألا يتوقف الآن ..

هل هذا صوت قعقعة ؟..

نعم !.. إنه كذلك !.. بل هو صوت سقالة عملاقة مشتعلة بالنيران تهوى فوق رأسك بالذات من أعلى .. ضوء النيران يملأ المكان ..

عندئذ تثب للأمام .. ولكن مهلًا !.. إلى أين ؟.. إن الأرض تلتمع بنصال خناجر مشرعة لأعلى بانتظار من يسقط عليها !..

نعم .. هكذا .. اهبط بدقة على الموضع الوحيد الخالى من الخناجر ؛ على حين تسمع صوت الدوى المروع خلفك إذ تتهشم الثقالة ويتناثر الخشب المشتعل فى كل مكان ..

لا وقت لتتنفس الصعداء ـ للأسف ـ لأن عجلة ثُمانية تهبط من السقف وهى تدور .. فتتناثر منها المشاعل الملتهبة تجاهك ..

اجذب ساقك من بين الخناجر سريعًا ودُر حول نفسك فى الهواء محاولًا تحاشيها .. إن طرف سروالك يشتعل لكن الوقت لا يسمح بأن تحاول إطفاءه ..

حاول الارتكاز على الجدار الجانبى ..

لكن .. لا تفعل !.. هل تسمع فحيح الأفاعى الشريرة ؟..
الأفاعى المتحفزة التى تحاول اقتناص طرف أناملك ، وتنتظرك دون ملل ..!

إذن لا جدران جانبية !..

العجلة تتدحرج نحوك ، و ...

سهام مشتعلة تندفع من الحوائط نحوك ..!

مستحيل أن يكون هناك جحيم على الأرض بهذه البشاعة .. إنهم لا يدعون لك ثانية واحدة لتلتقط أنفاسك ..

ثِب فوق العجلة .. وخذ الحذر من موطئ قدميك لأن هذا السائل الفائر الذى ينتشر فى الأرض لا يمكن إلا أن يكون مادة حارقة ..

لا تهبط .. تشبث بالحبال المعلقة فى السقف ..

وهكذا تمرّ السهام المشتعلة والعجلة من تحت قدميك ..

والآن ...!..

اترك الحبل فورًا !.. هل تسمعنى ؟!.. اتركه فورًا !..

ألا ترى الثعبان الملتفّ حوله وهو يزحف ببطء كى يلدغك ؟..

« كلنا اجتزناه قبلك .. ليس الأمر مستحلًا .. » .



اترك الحبل فورًا !.. هل تسمعني ؟! .. اتركه فورًا !..
ألا ترى الثعبان الملتفّ حوله وهو يزحف ببطء كي يلدغك ؟..

« لا تدع نيران ذهنك تخبو ثانية واحدة .. » .
اترك الحبل واقفز إلى الأرض .. بين الخناجر التى تركوا وسطها مواضع ضيقة لا تكاد تكفى لقدم واحدة .. وبعيدًا عن السائل الجهنمى .. أرجوحة ضخمة تتجه نحوك .. أرجوحة مشتعلة ..
« ليس الأمر مستحيلًا .. » .
انحن لتمر الأرجوحة فوق رأسك .. ثم انطلق سريعًا بين الخناجر قبل أن تعود الأرجوحة إليك ..
كم سهمًا ناريًا تحاشيت ؟..
كم ثعبانًا كاد يلدغك ؟..
كم كتلة ناريّة هوت فوقك ؟
لا تذكر ..
لقد تداخلت الرؤى والمشاهد .. لكنك امتزجت بسرعة الكون ذاته .. لم تكن أنت من يتحرك بل الشهب والأجرام والسُدُم والإلكترونات فى مداراتها الأبدية .. كنتِ لثوان تعيش بأعصاب القط الخائف ، ولثوان تعيش بتوتر الثعبان الغاضب ، ولثوان تفهم تمامًا مشاعر البعوضة التى تهوى نحوها كفّ فظة ...
فقط تذكر أنك فعلتها ....
وعند مخرج النفق خرجت متوترًا زائغ العينين ..

حتى أنك وثبت مترين للخلف مفلتًا من يد الأخ (وين ـ بياو) التى امتدت لك مصافحة مهنئة ..

وتعالى صياح الرهبان احتفالًا بالراهب الجديد ..

ومعهم تمضى إلى الكاهن الأعظم ليخبرك أنك نجحت واجتزت أسوأ لحظاتك بنجاح .. وفى رقة يسألك أهم سؤال فى الكون :

- « لِمَ لمْ تحرق الأفاعى بشعلة نار ؟ » .

- « لأننى نافاراى ! » .

- « ألم تخش الموت ؟ » .

- « (النافاراى) لا يخشى سوى موت الكائنات الحية الأخرى .. » .

إنها من المرات القلائل التى شوهد فيها الكاهن الأعظم يبتسم فى رضا ..

وفى المساء عرف (هن ـ تشو ـ كان) أن (جينغ ـ تشا) قد عبر نفس النفق بنجاح .. وإن اضطر إلى إبعاد الأفاعى بجذوة نيران ، الأمر الذى وجده الكاهن الأعظم دليلًا على ضيق الحيلة والعدوانية التى لا مبرر لها !!..

أنا لا ألوم (جينغ ـ تشا) أبدًا ولا أحسب أحدكم يلومه ، لأننا كنا جميعًا سنفعل نفس الشيء لولم نمت ذعرًا فى أول لحظة ندخل فيها ذلك النفق ..

لكن الفارق هنا هو أن الاختبار ليس الغرض منه قتل الممتحن بل اختبار أخلاقياته وجدارته بأن يكون (نافاراى) ..

لم يستطع (جينغ ـ تشا) أن يكون (نافاراى) لكنه لم يُطرد من الدير .. وكان هذا تسامحًا أحمق ....

تسامحًا لا مبرر له على الإطلاق ....



٣ ـ الليـلة الأخيـرة ..

مرت أعوام ...

وعندما جَنّ الليل اصطحب (هن ـ تشو ـ كان) تلميذه الصغير مرتجف الأطراف والفؤاد إلى صخرة (النرفانا) المكسوة بالثلوج ..

وفى تؤدة همس له :

ـ «لمـاذا تحـرق النـار ؟.. لأنهـا نار ..، لمـاذا يطفئهـا الماء ؟.. لأنه ماء .. لماذا يرتوى منه النمر ؟.. لأنه نمر ..» .

يغمغم الصغير فى رهبة :

ـ « لـ .. لا .. أفهم ... » .

ـ « لكنك ستفهم يومًا ما .. وعندئذ تكون (نافاراى) حقيقيًا .. » .

وكان (هن ـ تشو ـ كان) قد فهم منذ أعوام .. ذلك التسامح المطلق مع طبائع الأشياء ، لأنها لا تكون سوى نفسها .. وليس لك أن تتوقع أكثر من أى شىء ...، حين تفهم أن النار لا حيلة لها إلا أن تحرق .. والماء لا حيلة له سوى أن يطفئ .. عندئذ تغفر للثعبان لدغاته وللقط خدوشه ولخصمك ضرباته ..

كل ما يمكنك عمله هو أن تتفادى الأذى ..

لكن أعوامًا عديدة تنتظر الصبى كى يعرف ما عرفه (هن ـ تشو ـ كان) وسيكون عليه أن يجتاز اختباراته الخاصة وينال خبراته الذاتية .. لأن أحدًا لا يهديك الحكمة .. بل أنت من تهديها لنفسك ..

★ ★ ★

يقول (جوتاما) :

ـ « كل من يفصم صلته بما عداه ، ويهزم الإغراء .. لهو أعظم الرجال .. » .

★ ★ ★

كانت الإضاءة الخافتة تجعل الرؤية متعذرة فى صومعة الكاهن الأكبر لكن صوته الواهن المتداعى كان قادرًا على جعلك ترى وجهه المفعم بالتجاعيد وجفونه الذابلة .. لقد صار شيخًا فانيًا لكنه ازداد هيبة ..

ـ « ادخل يا (هن ـ تشو ـ كان) ... » .

منذ أعوام طوال لم يناديك باسمك .. هل كان هذا نذيرًا ما ؟..

ـ « لقد عشت بيننا وصرت واحدًا منا .. ولم نكن مخطئين حين انتظرنا منك الخير .. » .

احمر وجه الفتى وأطرق للأرض عاجزًا عن التفوه ببنت شفة ..

أمس فقط استطاع أن يصل إلى مرتبة التأمل الكاملة التى وصل إليها الأخ (وين ـ بياو) .. وغرق فى غيبوبة كاملة لا يذكر منها سوى حقائق علوية لا يعرف كنهها ..، وحين عاد إلى الوعى أخبره الرهبان أنه ارتفع عن الأرض .. بضعة سنتيمترات !..

منذ شهر فقط اخترق بقبضته الصخر القاسى ..، ركّز أفكاره وحشدها فى صورة واحدة .. صورة يده غائصة فى الصخر ..، تخيل جزيئات يده تتباعد .. وتتباعد لتفسح بينها مكانًا لجزيئات الصخر ..، العنصران يمتزجان .. يلتحمان ..

وحين أفاق كانت يده غائصة حتى المرفق فى الصخرة ..!

كان يتقدم دون شك ..

وكان يستحق كل هذا الثناء ..

اكتسب صوت الكاهن نبرة رهيبة مثيرة للوجل وهو يغمغم :

ـ « الآن حان الوقت كى أطلعك على سرّ أسرارنا .. » .

وفى تؤده نهض إلى تمثال كبير لـ (بوذا) متربعًا فى وضع التأمل الشهير ، واستدار إلى الفتى ليرى ـ فى الضوء الخافت ـ ردّ فعله إزاء هذا الفتح .. الجديد ..

وبنفس الهدوء المتعمد أدار رأس التمثال فدارت ..،
عندئذ أدرك الفتى المذعور أن الرأس هو سدادة لجسد
التمثال المجوّف يمكن انتزاعها لتكشف مجموعة من
الأوراق المصفرة المهترئة الملفوفة فى فتحة العنق ..

ـ « هو ذا كتابنا .. حاضرنا ومستقبلنا ..
الـ(شوكارا) .. الكتاب الذى يحوى أسرارنا وفلسفتنا
وأسلوب عملنا .. » .

ونظر إلى الفتى نظرة لا مزاح فيها :

ـ « أنت اليوم تعرف موضعه .. قليلون فى هذا الدير
يعرفون .. والمعرفة عبء لا يفهمه سوى الرجال ..
المعرفة ألم دائم وعذاب مقيم ..، لأنك لم تكن تخشى شيئًا
وأنت جاهل .. أما اليوم ...، » .

وأعاد غلق الفتحة مستغلًا رأس (بوذا) الذى أداره
حول محوره كسدادة الزجاجة ، وهو بعد يستطرد :

ـ « ربما سألوك .. ولربّما عذبوك .. لكنك لن تتكلم ..
لأنك تفهم أن هذا الكتاب هو حياتنا .. » .

ثم قال وهو يعود إلى الجلوس فى ركن الغرفة متأملًا
التمثال :

- «سيصطرع (الين) و(اليانج) فى أعماقك(★) لكنك ستنتصر .. أنا أعرف أنك ستنتصر .. ومن اليوم أنت من يحمى هذا الكتاب .. » .

كان الفتى يرتجف رهبة .. المسئولية .. الفخر والخوف .. كان يتمنى ذلك لكنه كان يخشاه بنفس القدر ..

قال الكاهن الأعظم وهو يشعل (السماور) :

- « غدًا تبدأ مرحلة الـ (سارايانا) ..! » .

- « (سارايانا) ؟.. » .

- « نعم .. (سارايانا) .. إن عقيدة (النافاراى) تنقسم إلى مرحلتين .. مرحلة التفادى أو القتال السلبى واسمها الـ (رانجانا) .. ثم مرحلة الهجوم أو القتال الإيجابى واسمها الـ (سارايانا) ..، والكاهن لا ينتقل من المرحلة الأولى للثانية إلا بعد أن يثبت براعته فى التفادى ومقت الاعتداء .. عندئذ يتعلم كى يهاجم .. إنه يكون وقتها كالنمر الذى يفضل النوم فى الشمس فلا يخرج مخالبه إلا لحظة الخطر الحقيقى .. » .

- « إذن .. الـ (رانجانا) وحدها لا تكفى لحمايتى ؟» .

(★) يؤمن البونيون بأن هناك طبيعتين فى الإنسان هما (الين) و(اليانج) .. إحداهما أنثوية متقلبة ثرثارة والأخرى ذكرية قوية هادئة صموت ، والإنسان هو محصلة القوة الغالبة عليه .

- « تكفى لحمايتك لكنها لا تكفى لحماية أحبائك ومبادئك ..، لو أن لصًا هاجم دارك فلن يمنعه (التفادى) من سرقتك .. لن يمنعه من إيذاء أمك العجوز .. لن يمنعه من تمزيق كتب صلواتك وسكب زيت الموقد .. » .

- « ومتى أبدأ الـ (سارايانا) ؟ » .

- « غدًا ..! » .

ابتلع الفتى ريقه وسأل السؤال الذى كان يتمنى أن تكون إجابته : لا :

- « و .... (جينغ ـ تشا) ؟.. هل يبدأ معى ؟ » .

ابتسم الكاهن الأعظم فى الضوء الخافت المنبعث من (السماور) .. وغمغم :

- « أنت تكره (جينغ ـ تشا) .. أليس كذلك ؟ » .

- « أ .. أ ... أنا .. » .

- « بلى تكرهه .. وروحك مثقلة .. لكنك تخشى أن تقولها ..، فلتهدأ بالًا .. إن (جينغ ـ تشا) لم يصر (نافاراى) قط .. ولن يصير ..، ومن ثم هو غير مؤهل للـ (سارايانا) ..، وتعليمها له كتعليم الشراسة لخنزير برى .. لا جدوى منه .. بل خطر داهم على الجماعة .. » .

ثم صمت الكاهن الأعظم فعرف (هن ـ تشو ـ كان) أن الحديث قد انتهى ..

★ ★ ★

- « تشا سارايانا ! » .

يقولها وهو يباعد ما بين ساقيه مثبتًا قدميه بقوة على الجليد ..

- « جوانغ سارايانا ! » .

يقولها وهو يفتح ذراعيه المشدودين المتوترين مباعدًا أصابعه كمخالب النمر ..

- « كيوه سارايانا ! » .

يقولها وهو يرجع رأسه للخلف لأقصى ما يستطيع ..

إنها الصرخات الثلاث التي يحتم عليه قانون (النافاراى) استعمالها لإنذار الخصم بأن القتال سيتحول من الدفاع السلبى (رانجانا) إلى الهجوم الإيجابى (سارايانا) .. ومعناها - إذ لم تخنى الذاكرة - بالترتيب هو : سأبدأ (السارايانا) .. احترس من (السارايانا) .. إليك بـ (السارايانا) ..

(تشا سارايانا) .. (جوانغ سارايانا) .. (كيوه سارايانا) .. وقد أعذر من أنذر ..!

إنه لمشهد مرعب .. مشهد الفتى المتوتر وهو يطلق قواه المقيدة من عقالها لتثب فى وجه خصومه .. كأنه منجنيق شُدَّ حبله إلى نهايته ثم قُطع ..

وبرغم أن العشرة الكهان المحيطين به هم أساتذة فى فن التفادى ؛ إلا أن ضرباته أطاحت بأربعة منهم سقطوا فوق الثلج يئنون ..

وكانت تدريباته تتم إما على خصوم حقيقيين من الرهبان .. أو على تمثال بالحجم الطبيعى للإنسان ..، وقد حُدّدت على جسم هذا التمثال النقاط الأساسية للهجوم .. وكانت مقسمة إلى أربع مجموعات :

ـ نارفا (لونها أبيض) : وتؤدى إصابتها إلى إحداث ذعر وإرتباك .

ـ كارفا (لونها أزرق) : وتؤدى إصابتها إلى فقدان الوعى .

ـ شورا (لونها أحمر) : وتؤدى إصابتها إلى الشلل .

ـ كورا (لونها أسود) : وتؤدى إصابتها إلى الموت .

وكانوا يعلقون التمثال ويجعلونه يتأرجح بسرعة لا تُصدق .. على حين كان الفتى يقف وقد لطخوا كفيه وقدميه باللون الأصفر مستخدمين طلاء لا يجف ..

وكان الأخ (ميانج) يصرخ :

ـ « شورا ! » .

عندئذ يثب الفتى كالسهم موجهًا أربع ضربات فى وقت واحد إلى النقاط الحمراء فى التمثال المتحرك ..

ـ « كارفا ! » .

فكان الفتى يوجه ضرباته إلى النقاط الزرقاء ..

وبمجرد انتهاء التدريب كانوا ينزلون التمثال ويبدءون في دراسة آثار الطلاء الأصفر التى تركتها قبضة الفتى وقدمه على الأماكن المطلوبة ..

لا داعى لذكر أن النقاط التى كان الفتى يهاجمها فى تدريبه الحىّ مع الرهبان هى نقاط الـ (نارفا) التى لا تحدث سوى بلبلة وارتباك ..

كان هذا ضروريًا لأن الفتى كان يتقدم - كالعادة - بسرعة غير عادية وكان تدريبه خطرًا لا ريب فيه لولا سيطرته الكاملة على جهازه العصبى ..

وفى سره أدرك الأخ (ميانج) أنه لم ولن يدرب ظاهرة مثل الزهرة الزرقاء .. وحتى مبتدع فلسفة (النافاراى) ذاته كان سيذهل لو أنه رأى هذا الفتى .. كأنه جاء الدنيا ليعرف الناس من خلاله معنى لفظة (نافاراى) ..

- «سيكون لهذا الفتى» قال لنفسه «شأن خطير .. » .

★ ★ ★

مرة أخرى جلس الفتى أمام الكاهن الأعظم يقلّب - على ضوء الشموع - أوراق الـ (شوكارا) المهترئة المصفرة ..

كانت هناك مئات الأساليب الغريبة والمواعظ والنصائح والنبوءات والذمّ فى البوذية والهندوسية ..



مرة أخرى جلس الفتى أمام الكاهن الأعظم يقلّب ــ على ضوء

على أن شيئًا غريبًا شدّ انتباهه أكثر من سواه ..

كانت هناك طريقة غامضة اسمها (شانكين) يزعم الكتاب أنها تنقل الجسد المادى عبر الأزمنة والمسافات، وكانت قائمة على التأمل المستمر المرهق .. وبالطبع ونظرًا لحداثة سن بطلنا فإن ما تبشر به هذه الطريقة من متعة كان جديرًا بالاهتمام ..

- « دعك منها .. » .

قالها الكاهن الأعظم فى لا مبالاة .. وأردف :

- « هى لعبة خطرة قائمة على تفكيك الجزيئات وإذابة ماديتها لتتوه فى الأثير حيث لا زمن ولا مكان .. ثم تحتشد فى أرض أخرى وزمن آخر .. لكنها - الطريقة - لم تحدد كيفية اختيار الزمن والمكان .. كما أنها لم تحدد كيفية العودة من هناك .. » .

هزَّ الفتى رأسه فى طاعة ..

لكن هذه السطور ظلت محفورة فى ذهنه .. وأدرك أنه سيجربها يومًا ما ..

★ ★ ★

كانت مشاكل (جينغ - تشا) تزداد تعقيدًا ..

فهو يتشاجر مع الجميع ولا يحترم أحدًا ..

ويبدو أن يأسه من أن يصير (نافاراى) قد جعله بلا شيء يخسره .. وبدا واضحًا أن الكاهن الأعظم سيطرده من الدير بعد أيام أو ساعات ..

وبدأت إشاعات تسرى فى الدير أنه يتردد على رهبان (الماهايانا) فى القرية القريبة(★) وكان هذا خطيرًا جدًّا لأن (النافاراى) - برغم أنهم يستعملون الكثير من تعاليم (بوذا) - كانوا يعتبرون (الماهايانا) خصومهم الطبيعيين.

وتلك الليلة المشئومة كان (هن - تشو - كان) يمارس تأملاته فى الغابة الثلجية البعيدة حتى الفجر ..

ثم إنه عاد إلى الدير كعادته ..

ومن اللحظة الأولى أدرك أن هناك شيئًا على غير ما يُرام ..

بالواقع لم يكن أى شيء على ما يرام ..

وأدرك خطورة الموقف أكثر حين دخل الدير فوجد ثلاثة رهبان واقعين على وجوههم وحولهم بركة من القيء .. وكان من بينهم الأخ (وين بياو) ..

أصابه الجنون وهرع إلى الداخل ..

وفى كل قاعة كانت كارثة تنتظره ..

(★) (الماهايانا) : هى العقيدة البوذية التى تمارس فى التبت ومنغوليا والصين واليابان، ومعناها (الناقلة الكبيرة)، ومنها تتفرع ديانتا (اللاما) فى التبت و (زن) فى اليابان.

كل الرهبان موتى - أو قتلى - غارقين فى القىء مما يدل على أن هناك حادث تسمم عام ..، بل الأطفال أنفسهم لم ينجوا ..

حتى الأخ (ميانج) - صنو روحه - لم يكن أفضل حالًا ..

ماذا حدث ؟..

كيف حدث ؟..

متى حدث ؟..

ماذا دهاكم أيها (النافاراى) ؟.. كنت أحسبكم أذكى من أن تلقوا حتفكم .. لكنها حقيقة واقعة .. أكثر من عشرين راهبًا كلهم جثث هامدة ..

فى جزع جرى إلى الممرات حيث الكاهن الأعظم فوجده جاثيًا على ركبتيه وقد أراح رأسه وكتفيه على (الطبلية) الصغيرة التى يتلو الصلوات عليها .. وكان القىء يلوث الأرض حوله ، وثمة قدح شاى قد سقط أرضًا فتهشم ..

لكنه كان يتنفس ..!

بلهفة هرع فتانا إليه وجلس القرفصاء جواره ، وأراح رأسه العجوز على فخذيه .. وفى عينه التمع ألف سؤال لم يكن بحاجة للنطق به ..

فتح الشيخ عينيه الذابلتين بوهن .. وبدا عليه شبح الرضا إذ رأى تلميذه النجيب .. ثم همس بفحيح الأفعى :

ـ « كـ .. كلهم ماتوا ؟ » .

ـ « جميعًا ..! » .

التمعت دمعة فى عينى الشيخ .. وبلل شفته الضامرة بطرف لسانه :

ـ « إذن أنت الكاهن الأخير ... » .

كانت رائحة فمه كريهة جدًا وهو يهمس .. لكن (هن ـ تشو ـ كان) لم يكن فى حال يسمح بالاشمئزاز .. ولم يسرّه قط أن يعلم أنه آخر الكهنة ...

ـ « ماذا حدث يا معلم ؟ » .

زاغت عينا العجوز أكثر .. وعاد يفحّ :

ـ « هو .. خـ .. خطئى .. (جينغ) .. (جينغ ـ تشا) .. دسّ .. دسّ لنا .. الـ .. السم .. فى .. الشاى .. » .

ـ « اللعين !.. أراد أن ينتقم ! » .

ـ « بل الأمر أخـ .. أخطر .. يريد الـ .. الـ (شوكارا) .. لـ .. لقد بحث .. عنـ .. عنها فى كل مكـ ... ان ... آه !.. » .

ـ « ولماذا يريدها ؟ » .

ـ « مـ .. من أجل الـ .. (ماهايانا) .. لقد ذهب لـ .. يحضرهم .. كـ .. كى يبحثوا معه .. وسـ .. يصلون بعد .. دقا .... ئق .. » .

ـ إذن هى فى التمثال بعد ؟ » .

ـ « ن .. نعم .. إن من يجدها سيحكم الـ .. العالم .. ولا أريد أن يـ .. يكون هو (جينغ ـ تشا) .. آه ! » .

التمعت عينا الفتى وقد أدرك خطورة الموقف .. إذن فحماية كتاب (النافاراى) هى مسئوليته لأنه ـ بعد ثوان ـ سيكون (النافاراى) الوحيد على ظهر الأرض ..، وهو يستطيع أن يتخيل الكارثة التى ستحدث لو أن مأفونًا من عينة (جينغ ـ تشا) وجد الكتاب ..

لم يعد هناك وقت لرقة المشاعر ..

لذا أراح رأس أستاذه المحتضر على الأرض وهرع إلى تمثال (بوذا) ليفك رأسه وينتزع الأوراق الثمينة ويدسها فى صدره .. ثم أنه جثا جوار رأس الأستاذ ليتلقى تعليماته الأخيرة ..

ـ « هل أقاتلهم ؟ » .

ـ « لـ .. لا .. سيكونون أكثر عددًا مـ .. من قدراتك .. لـ .. لا يجب أن تجـ .. تجازف .. الـ .. الكتاب أهم من أن .... » .

نعم .. نعم .. لم يحسن التعبير لكن المعنى مفهوم .. إن إنقاذ الكتاب أهم من خوض قتال لا تعرف نتائجه لمجرد إشباع غريزة الانتقام ..

ـ « إذن أهرب ... » .

ـ « سـ .. سيجدونك ... » .

ـ « وما الحل ؟ » .

ـ « (شانكين) ..! » .

(شانكين) ؟.. نعم .. نعم .. الوسيلة التى تتحدث عن السفر عبر الزمان والمكان والتى وجداها فى الكتاب منذ أيام ..، لكنها خطرة كما قال المعلم .. ولكن ..

ـ « لـ .. لا .. مـ .. مجال للاختيار .. إذ .. اذهب للـ .. للحجرة الـ .. المجاورة .. وابدأ .. الـ .. التأمل .... » .

ـ « وأنت يا معلم ؟ » .

ـ « لـ .. لقد .. انتـ .. انتهى أمرى ! » .

حاول (هن ـ تشو ـ كان) كبح جماح دموعه ، ومدّ يده لصدره فأخرج الأوراق البالية .. وانتزع منها الورقة التى تتحدث عن طريقة (شانكين) ثم أعاد الأوراق لصدره ..

وفى الحجرة المجاورة شرع يقرأ .. كان ضوء الفجر الوردى يتسرب من النافذة المنحوتة فى الصخر ، وآلام اللحظات الماضية التى مرّت كحلم كابوسى غريب لم يتخيله ، وزلزلة عالمه فجأة ورحيل أصدقائه الوحيدين والمسئولية الثقيلة الملقاة فوق كتفيه ...

كل هذا كان يحتشد فى عقله وقلبه لكنه أزاحه بعيدًا وأخذ شهيقًا عميقًا وبدأ يحلم ..

صوت رجال .. صوت باب يتهشم ..

لقد عادوا وهو لم يحرز نجاحًا يذكر ..
صوت تحطيم .. تمثال (بوذا) بالذات .. لكنهم لن يجدوا ما يـريـدون .. ركّز أكثـر .. امتـزج بالكـون .. حـاول ألا توجد ..
أنت تدنو من (النيرفانا) الكاملة .. حالـة الانطفـاء النهائية ..
لا تدع صوت السيوف يخرجك من تركيزك ..
لا تدع صوت أنين الكاهن الأعظم ـ وهم يعذّبونه غير مبالين بأنه رجل ميت ـ لا تدعه يشتت تيار أفكارك ..
انبذ مخاوفك الخاصة ..
هأنتذا تذوب فى الأبدية ..
هأنتذا تفقد ماديتك وتتحول إلى ذرات أثيرية ..
إنهم يقتربون من الحجرة ..
لكنك ـ أنت أيضًا ـ قد اقتربت جدًّا ..
جدًّا ... جدًّا ...
و ....
لقد نجحت ......

★ ★ ★

٤ ـ أرض أخرى .. زمن آخر ..

أظن القارئ يتساءل الآن : أين ذهب هذا السخيف (رفعت إسماعيل) بسخريته المقيتة وصلعته ورائحة سجائره ؟..

هذا بالطبع ـ وإن كنت لا أرجوه ـ ما لم يعلن إحساسه بالرضا والاستمتاع لأنه يقرأ أخيرًا قصة محترمة !..

ولكن صبرًا يا رفاق ...

لا تفرحوا قبل الأوان .. فأنا آت لا محالة .. وستعرفون السبب بعد بضع صفحات ...

★ ★ ★

الظلام والحرارة والرائحة الخانقة ..

لبضع ثوان ملأت المفردات الثلاثة حواسه فلم يستطع أن يفهم أين هو .. لكنه كان واثقًا من شىء واحد ..

أن القاعة التى كان يتأمل فيها منذ ثوان قد اختفت ..

بدأت عيناه تعتادان الظلام .. فاستطاع أن يرى أجولة من الخيش مكومة فوق بعضها ، وحيوانات صغيرة مكسوة بالفراء تجرى هنا وهناك بسرعة لا تصدق (لم تكن الفئران من الحيوانات المألوفة فى الدير) ..

أدرك دون جهد أنه فى مخزن ما ...

ومن الرائحة عرف أنه مخزن لنوع من الحبوب ..

لكن أين ؟.. وفى أى زمن ؟..

سمع باب المخزن ينفتح محدثًا صريرًا ..، واندفعت لعينيه حزمة أليمة من ضوء الشمس كأنها دستة من الإبر تنغرس فى مقلتيه ..

وبين الإبر الأليمة رأى خيالًا فارعًا يدخل من الباب ..

كانت فتاة شابة ..

وبرغم الألم الذى أحدثه الضوء الساطع أدرك أن شكلها غريب جدًا .. فهى سمراء اللون عيناها واسعتان على نقيض فتيات وطنه .. وكانت كبيرة العظام ضخمة القدمين كما لم ير فتاة من قبل ..

لكنها - برغم غرابة مظهرها - كانت مليحة ..

وفى نشاط وخفة - ودون أن تلاحظ وجوده - ألقت على الأرض بمقص كبير وبعض الحبال، ثم انسلت مغادرة المكان دون أن تغلق الباب خلفها ..

تحرك الفتى ببطء شديد واختبأ خلف كومة أجولة، وشرع يدقق البصر فى نهم إلى العالم الخارجى وراء الباب ..

كان هناك رجال يتحركون هنا وهناك .. سمر البشرة يرتدون ثيابًا طويلة تصل للقدمين ، وكانوا يضعون على رءوسهم أغطية رأس غريبة .. وكان بعضهم منهمكًا بحمل الأجولة متجردًا من ثيابه الطويلة كاشفًا عن سروال أبيض متسع وصدرية مليئة بالأزرار ..

ولم يكن أحدهم يعقص شعره خلف ظهره .. أو يرتدى قرطًا ..

أخذ عقل (هن ـ تشو ـ كان) يعمل بأسرع ما يمكن ..

لن يلبث أن يكتشف أمره .. وعندئذ .. وحتى لا يبدو شاذًا .. عليه أن يبدو مثل هؤلاء أو على الأقل قريبًا منهم ..

فى تؤدة التقط المقص .. وحركه إلى مؤخر رأسه وجزَّ خصلة الشعر الناعم المتدلية على ظهره ..

ثم إنه وجد ثوبًا من هذه الأثواب الطويلة وغطاء رأس فى أحد أركان المخزن .. كان الثوب متسخًا قذرًا تفوح منه رائحة العرق لكن الوقت لم يكن مناسبًا لقواعد الصحة ..

لهذا نزع ثيابه وارتدى الثوب الجديد .. وثبت غطاء الرأس الصوفى على رأسه وتمنى لو رأى وجهه فى لجة ماء ..

جاء الجزء الهام من الموضوع ..

الآن ينبش بأظفاره الأرض الترابية محدثًا حفرة صغيرة .. ثم يغلف كتابه الثمين - الـ (شوكارا) - بثيابه التى خلعها ..، وفى حذر يدفن الحزمة الثمينة فى الحفرة ..

ويهيل التراب وقد سرّه أن الجفاف العام المخيم على التربة يدل على أن الرطوبة لن تفسد الكتاب ..

وبالطبع لم ينس أن يدفن خصلة الشعر والقرط مع الثياب وما بداخلها ..

ثم إنه مسح بالغبار وجهه ..

سيبدو قذرًا كخنزير .. وهو المطلوب لأن وجهه المتسخ لن يدع الكثيرين ينتبهون لعينيه الضيقتين ولون بشرته الأصفر .. على الأقل فى الوقت الحالى ..

لم يكن يتفادى شيئًا بعينه ..

لكنه كان يعلم أن هناك خطرًا لا يدرى كنهه ..

بعد دقائق ظهر (سيلويت) الفتاة عائدة إلى المخزن مندفعة بنفس النشاط والحيوية ..

وفى هذه المرة كان محتمًا أن تراه ..

التقت العينان .. ولمح عينيها تتسعان فى هلع .. وشفتيها تهمسان بلفظة ما .. ثم أنها ضربت بكفها المفتوح صدرها (ولم يكن قد رأى هذا الأسلوب فى إظهار الذعر من قبل ..) ..



ثم يغلف كتابه الثمين ــ الـ (شوكارا) ــ بثيابه التى خلعها ..،
وفى حذر يدفن الحزمة الثمينة فى الحفرة ..

- « آبا ..! ..! آبا ..! » .
كذا صرخت وهى تجرى هاربة من المخزن ..
أما (هن - تشو - كان) فظل مسمرًا فى مكانه يشعر بالحيرة ، بالإضافة إلى غرابة اللغة التى استعملتها الفتاة .. واللفظة التى قالتها يملؤها حرف غير مألوف لأذنيه (حرف الحاء فى عبارة : بسم الله الرحمن الرحيم) .. فما هو هذا المكان ؟

ومن هم هؤلاء القوم ..؟
بعد ثوان امتلأ المخزن بالفضوليين والمتحمسين والمتحفزين ..
أما (آبا) - أو الشخص الذى نادته الفتاة - فكان عجوزًا كث الشارب أشيبه يربط رأسه بمنديل ويرتدى معطفًا أصفر حال لونه منذ دهر .. وكان يمسك فى يده بعصا طويلة معدنية تشابه تلك المدافع التى كان الصينيون يستعملونها فى حروبهم ..
فى تؤدة وحذر اقترب من الفتى وسأله عن شىء ما ..
كان (هن - تشو - كان) قد قرر التزام الصمت والحذر .. سيتظاهر بالخرس والعته فلا يصير بحاجة إلى الردّ .. ، اندمج فى الدور وتدلَى لسانه خارج فمه مبعثرًا اللعاب على ذقنه .. وبعينين زائغتين شرع يتابع كلمات الرجل التى لم يكن فى حاجة للتظاهر بأنه لا يفهمها لأنه - بالفعل - لا يفهمها ..

كان الرجل يرمقه فى شك ..
ثم بدأ يتبادل حديثًا غاضبًا مع الرجال وهم يقنعونه بشىء ما ..
أدرك الكاهن الأخير أن عادة هؤلاء القوم هى الصخب والكلام الكثير .. وأن الهمس عندهم هو نوع من الصراخ ..
لم يكونوا سمرًا كالزنوج أو بيضًا كالتجار الإيطاليين الذين رآهم ذات مرة .. ولا هم صفر كأبناء جلدته ..
فمن هم إذن ؟..
تصايح القوم بشىء ما فبرزت من صفوفهم امرأة عجوز تحمل خبزًا ومادة صفراء اللون شديدة الملوحة يبدو أنها نوع من الخبز .. وفى يدها الأخرى وعاء من الفخار تكاثف الماء على سطحه .. وقدمته له ..
كان (هن ـ تشو ـ كان) معتادًا الجوع أيامًا طويلة ، لكنه أدرك أن الحكمة تقضى بعدم الرفض ..
شرع يلتهم الطعام ـ غريب المذاق ـ والجميع يراقبونه فى فضول ..
كانت أذنه الحادة تعمل كأذن القط .. ولقد أدرك أن اللفظة التى يكررونها لكل وافد جديد على المشهد .. هذه اللفظة : (أهبل .. أهبل) لا تعنى سوى العتة أو الجنون ..

كانت هناك لفظة أخرى تتكرر بإصرار وبدا له أنها مقاربة فى المعنى .. هى (بتاع ربنا) ..، وإن أثار دهشته حرف (العين) الذى لم يعتد سماعه قط ..

وفى رضا أدرك أنه قد تلقى تأشيرة الدخول إلى عالمهم ، وكأنه يكافئ نفسه رفع الوعاء الفخارى إلى فمه وجرع الماء حتى ارتوى ..

★ ★ ★

دعونا الآن نفارق وجهة نظر كاهننا لنتخذ وجهة نظر أكثر شمولية وإلمامًا بالتفاصيل ، لأنه لن يفيدنا بشىء أن نجهل ما يجهله هو على طول الخط ..

أظن القارئ قد استنتج أن الكاهن قد قذف إلى قرية مصرية .. أى أنه قد ابتعد مئات الأميال عن وطنه الأصلى ..

دعك من أنه كان يعيش أصلًا فى القرن السادس عشر .. وهو اليوم فى عام ١٩٦٧ .. أى أنه ابتعد أربعة قرون عن زمنه الأصلى ..

ويمكننا القول إن خدعته قد انطلت على الفلاحين .. فهم لا يملكون خبرة طبية لكنهم ـ حتمًا ـ رأوا أناسًا مصابين بهذا النوع من التخلف العقلى الذى يجعل العينين ضيقتين والشعر ناعمًا ..، هذا العيب الخلقى الذى يسميه الأطباء بـ (العته المنغولى)(★) ..

(★) أحيانا يُسمىَ بـ (متلازمة داون) .

لهذا تقبلوا سريعًا فكرة العثور على شاب شريد متخلف عقليًا له ملامح صينية .. كان هناك فى القرية المجاورة شاب مثله .. وكان أهل القرية يسمونه (الشيخ عطوة) .. ويتبركون به ..

وهى عادة ريفية قديمة .. عادة اعتبار المتخلفين عقليًا فى عداد الأولياء الذين شفّت نفوسهم إلى حدّ الاتصال بسر الكون ..

لهذا لم يكن صعبًا عليهم أن يتقبلوا هذا الشريد البائس بينهم لا يهم من أين أتى ولا من هو ..

المهم أنه بحاجة إليهم ..

أما عن المدعو (آبا) ـ أو ما ظنه الكاهن ـ فلم يكن سوى (محمد السقا) خفير شونة الغلال .. وبالطبع لم يكن (آبا) سوى نداء ابنته له حين رأت الكاهن .. وقد ظن هذا الأخير أن (آبا) هو اسم الرجل ..!..

كانت القرية مفعمة بعمال الترحيلة فى تلك الآونة ، لهذا لم يكن وجود وجوه غريبة أمرًا يثير الريبة ..

وكانت ابنة الخفير ـ واسمها (سعدية) ـ تتواثب هنا وهناك تعين الرجال على ربط غرارات الحبوب وتعدّها ..، وكان ابنه الشاب (إبراهيم) منهمكًا فى معاونة العمال مع أبيه ..

ومن اللحظة الأولى أدرك الأب أن الوافد الجديد سيكون مسئوليته ، ولربّما ابنًا ثانيًا له ..

وقد أدرك ـ بفطنة الفلاح التى لا تخطئ ـ أن الفتى ليس أصم .. فعيناه تتابعان الأصوات .. وجهه يتلون حسب حدتها ، لكن من الواضح أنه لا يفقه حرفًا ..

وجاء المساء ..

العباءة الزرقاء الرطيبة تفترش الكون ..

لكن الفتى ظل جالسًا حيث هو يرمق الأفق فى نهم .. فحتى النجوم تبدو مختلفة ها هنا ..

من الغريب أنه ليلة أمس ـ أحقًا هو أمس ؟ ـ كان يحيا فى عالم (النافاراى) يمارس تدريبات (السارايانا) فوق الثلوج .. واليوم ماذا بقى من كل هذا ؟.. هل كانت حياته السابقة حلمًا كلها ؟.. أم أنه يحلم الآن ولن يلبث الأخ (ميانج) أن يوقظه ؟..

حقيقة واحدة كان يدركها ..

لو أنه ظل ها هنا فترة أطول فلسوف يذوى ويموت .. نعم .. يموت .. مثله مثل الببغاء التى يحبسونها فى قفص بعيدًا عن توءم روحها ..

شعر بخطًا تقترب منه فأجفل ..

كان القادم هو الخفير يحمل له شيئًا ملفوفًا فى رغيف خبز من الواضح أنه يؤكل ، وقال له شيئًا ما ..

ثم إنه أشار له إلى المخزن .. وقال شيئًا آخر ..

قصة بسيطة لا تحتمل سوى تفسير واحد : ـ تناول عشاءك ونم فى المخزن .. وغدًا يوم آخر ..

التهم الكاهن الأخير بعض لقيمات متجاهلًا نظرات الرجل الفضولية له ..، كان الليل هو ميعاد تمارين (النافاراى) فى وطنه .. لكنه لم يعد حرًا كى يزاول عاداته ..

الأدهى هو أنه فقد القدرة على النوم ليلًا .. اختل إيقاعه الحيوى تمامًا وغدت ساعات النهار هى ساعات نومه ، وهذا معناه أنه سيقضى ساعات تعسة طويلة من الأرق فى ظلام المخزن ..

كان المخزن حارًا .. حارًا أكثر من طاقة تحمل هذا البائس القادم من أرض الثلوج ..

وكان قلبه مثقلًا بالهموم ..

لذلك ـ حين نام أخيرًا ـ كان الملل والقنوط هما اللذان غشيا وعيه وليس النعاس ..

وغدًا يوم آخر ..

★ ★ ★

٥ ـ مخالب النمر ..

« كالنمر الذى يفضل النوم فى الشمس فلا يخرج مخالبه إلا لحظة الخطر الحقيقى .. » .

★ ★ ★

قديمًا كان للفتى اسم هو (هن ـ تشو ـ كان) اختاره له أبوه ..، ثم كان له اسم آخر هو (الزهرة الزرقاء) اختاره له الكاهن الأعظم ..، أما اليوم فثمة اسم ثالث له رنين غريب اختاره له (آبا) .. هذا الاسم هو (الأخرس) ..

لم يكن يفهم معنى الكلمة .. ولا هو بالقادر على نطقها لو أراد ..

لكنه أدرك أنها تتعلق ـ بشكل ما ـ بصمته المتعمد المستمر ..

★ ★ ★

كانت الحياة تتحرك حاملة الفتى فى ركابها ..

فى الصباح كان يعاون العمال فى حمل الأجولة وعدّها ..، وفى الليل كان يتكوّم كالهر التعيس فى أحد أركان المخزن المظلم راضيًا ـ على الأقل ـ بأنه يحرس كتاب (النافاراى) الثمين ، ولم يكن يتقاضى أجرًا

ـ وما كان يهمه أن يتقاضى ـ سوى طعامه .. الوجبات الثلاث تدور كلها حول الخبز والجبن والزبد مع بعض الخضر المطهوة فى مناسبات عشوائية ، أما قطعة اللحم التى كان يجدها أحيانًا وسط الخضر فكان يلقيها للقطط ..

كان ـ ككل (النافاراى) ـ عزوفًا عن اللحوم والبيض .. لكنه كان يرحب بمنتجات الألبان ..

وفى الليل ـ وحين يتأكد من أن العيون لا تراه ـ كان يمارس تدريبات (النافاراى) الانفرادية فى المخزن ، وحيدًا يقاتل خصومًا وهميين ويتفادى ضربات لا وجود لها ..، وهو شىء قريب مما يسميه لاعبو الـ (كونغ فو) بالـ (كاتا) ..

وكان أعقد تمرين استطاع أن يبتكره هو الإمساك بالفئران !.. نعم !.. أنتم لم تخطئوا قراءة الكلمة !..

إن سرعة الفئران خارقة وانعكاساتها لا تُصدّق..، وكان عددها ـ لحسن الحظ ـ لا بأس به فى المخزن ..

فكان الكاهن الأخير يحاول محاكاة انعكاساتها بنفس السرعة والتوتر ..

تخيل منظره إذ يقف متصلبًا كاتمًا أنفاسه متوترًا كالقوس .. ثم .. بدون استعداد ولا إنذار .. يقفز كالقط المسعور إلى ركن المكان وقبل أن ترى أنت ذراعه يكون قد التقط فأرًا مذعورًا بائسًا من ذيله .. ورفعه لأعلى ..!

ويحاول الحيوان التملص .. ويثنى جذعه محاولًا عض اليد الحديدية التى أمسكت به لا يدرى متى ولا كيف ..

- « لا تخف يا أخى .. إن (النافاراى) لا يؤذى كائنًا يتحرك .. » .

ثم يطلق سراحه .. فيفر الفأر غير مصدّق لا يلوى على شىء ..

إنسان أسرع من الفأر ..!

هل تصدق هذا ؟..

الواقع أن هذا التمرين - وليد البيئة - أتى بثمار غير متوقعة ..

كان الفتى يتفوق على نفسه يومًا بعد يوم ...، إلى الحد الذى كان سيصيب الأخ (ميانج) نفسه بالذهول لو رآه ..

★ ★ ★

كان الخفير وامرأته يعاملانه بشىء من الشفقة المغلفة بفظاظة من لم تعلمه الحياة الفقيرة أصول الرقة ...، لكنه كان يدرك أنهما يعطيانه ذروة الحنان الذى فى جعبتهما .. وهذا يكفيه ..

وكان ذكاؤه الخارق قد مكنه من فهم العديد من الألفاظ التى يستعملانها وكان يبدى استجابته لكل هذا ، لكنه ادخر لنفسه شيئًا من الفهم لم يبده على السطح مدفوعًا فى ذلك بحذر غريزى كحذر القط النمرى ..

يقول له الخفير مثلًا :

ـ « هات جوالًا واربطه .. » .

فكان الفتى يحضر جوالًا .. ثم يتجاهل الجزء الخاص بالربط مدعيًا الغباء أو البله برغم أنه أدرك منذ زمن بعيد ـ معنى احتشاد حروف الراء والباء والطاء فى لفظة واحدة ..

وهكذا ينسكب محتوى الجوال على الأرض ، فيصيح الرجل محنقًا :

ـ « أيها الأبله !.. اربط .. ألا تفهم معنى أ..ر..ب..ط؟! » .

ويكون الفتى قد فهم أيضًا من احتشاد حروف الباء واللام والهاء أن الرجل يتهمه بالحماقة ، وقد أدرك ـ دون جهد ـ أن هناك مزية غريبة لهذه اللغة هى أن حروفًا معينة تؤدى المعنى متى احتشدت ..، فكلمة (أبله) و (أهبل) و (بلاهة) و (بله) و (هبل) كلها تعنى الحماقة ..

وهو ليس أحمق .. لكنه يرحب تمامًا بهذا النعت ..

هذا عن الخفير وامرأته ..

أما عن ابنهما (إبراهيم) فقد كان حديث السن ، وبحكم حداثة سنه كان عاجزًا تمامًا عن معاملته برقة ، وكان يتخذ

منه مادة للمزاح مع رفاقه ـ وهم مجموعة من الأوغاد شديدى السماجة ـ ولربّما عرقل سيره مادًّا ساقه أمامه، ولربّما صفعه على قفاه، ولربّما انتزع الطاقية من على رأسه ورماها بعيدًا ..

كان الكاهن يمقته بجنون ويتمنى تهشيم رأسه .. لكن واجب الحذر كان يملى عليه أن يصبر .. بل إنه لم يكن يملك حتى حق تفادى الضربات المهينة .. لأن سرعته فى التفادى ستثير ذهول الفتى وأصحابه، الذين لن يقتضى تحويلهم إلى مُقعدين سوى ضربتين منه ..

كانوا ذبابًا ..

وهو لم يقتل ذبابة فى حياته ..

بعد هذا يجىء دور (سعدية) ..

هذا الشباب النضر الرشيق، والنظرة الحانية المرهفة التى تقطر بالأنوثة من عينها الكحيلتين الواسعتين ..

كانت معجبة به .. وتعنى بأمره ..

أدرك ذلك دون غرور .. بل فى شىء من الدهشة لأن مظهره ووضعه المزرى هما أبعد ما يكونان عن اجتذاب إعجاب فتاة ..

والمصيبة هى أنه كان معجبًا بها هو الآخر .. وكان على استعداد تام لأن يقع ـ كالذبابة ـ فى خيوط هواها العنكبوتية .. لولا ....

★ ★ ★

« لا تروهن يا (أناندا) .. لا تحدثوهن يا (أناندا) .. وإذا تحدثت إليك واحدة منهن فلا تكترث لما تقول يا (أناندا) ..! » .

★ ★ ★

« لا يحق للـ (نافاراى) أن يتزوج حتى لا تسلبه ذريته إخلاصه وحكمته .. فهل حقًّا تفهم مغبة ذلك ؟ » .

★ ★ ★

نعم .. يفهم مغبة ذلك ...

وستنظر له الفتاة تلك النظرة التى تخفى آلاف الكلمات فيها ، وستحضر له كيزان الذرة المشوية خلف المخزن حين يجلس متأملًا الأفق .. وتقدم له كوزًا وتبدأ فى التقاط الحبوب من كوزها .. وتقذفها برشاقة إلى فمها .. ثم تسأله متربعة على القش جواره ..

ـ « لماذا لا تأكل ؟.. » .

الكاف واللام ولهجة التساؤل .. إنها تسأله عن سر عدم أكله ، لا داعى إذن لمقاومة حبات الذرة الساخنة .. يملأ فمه بها ويلوكها فى صمت ناسيًا أن يمحو عمق المعاناة من على وجهه ..

لحظات كهذه كانت لا تفوت الفتاة ، عندئذ كانت ـ بغريزة الأنثى ـ تشعر أن هذا الفتى ليس معتوهًا .. بل هو يتظاهر بذلك ..



وستحضر له كيزان الذرة المشوية خلف المخزن حين يجلس

متأملاً الأفق ..

وتقدم له كوزًا وتبدأ فى التقاط الحبوب من كوزها ..

إنها تثرثر .. تثرثر .. تثرثر ...

وحتى فى ذلك اليوم الذى جرح ذراعه فيه ، وقادته إلى ذلك المبنى الغريب كانت تثرثر ، وكان هناك رجل يرتدى معطفًا أبيض ضمد له ذلك الذراع ، أما هى فأخذت تشير إلى غرفة ما فى الطابق العلوى وتحدثه عن (إبراهيم) أخيها .. حكاية طويلة لم يفهم مغزاها ..

يبدو أن (إبراهيم) هذا كان مريضًا وأحضروه هنا يومًا ما .

لم يكن كل هذا ذا أهمية ..

بل ـ والأسوأ ـ كان مملًا ومبتذلًا إلى حد لا يُوصف ..

هل سينتهى الأمر بأفضل كهنة (النافاراى) إلى أن يعيش ويموت مجرد عبيط قرية آخر ؟!

★ ★ ★

فى تلك الليلة كان جالسًا فى المخزن يتأمل حين سمع صرير الباب .. تجمد الدم فى عروقه .. من هو القادم فى هذه الساعة ؟..

حتمًا هو ليس الخفير لأنه كفّ عن تفقد المخزن من زمن مطمئنًا لوجود الفتى ... وبالطبع ليست (سعدية) لأنها ليست من هذا الطراز .. ولا هو (إبراهيم) لأنه لم يفعلها قط ..

إذن هو ....

انفتح الباب أكثر .. وسمع صوت همس ..

ثم إنه رأى عددًا من الرجال الملثمين ينسلون من الباب وهم يلهثون انفعالًا ..

لقد توقع ما هو أسوأ من حفنة لصوص غلال ، ولم يكن بيده ما يفعله سوى أن يقبع فى مكانه يراقب ما يحدث ..، فلا الغلال غلاله ولا هو سيد الموقف .. فليأمل فقط ألا يراه هؤلاء الأوغاد .. ومن يدرى ؟.. قد تتاح له فرصة الاستعانة بأهل القرية فيما بعد ..

كانوا يحملون مصابيح غريبة تضىء بلا نار .. وكانوا يتفقدون بها أرجاء المكان ..، ثم .... أغشى الضوء عينيه ، وعرف أنهم رأوه .. وعرف كذلك أن رؤيته أثارت رعبهم أكثر بمراحل مما أثاروا هم رعبه ..

وسمعهم يهمسون بصوت مسموع ..

ثم رأى أحدهم يهرع نحوه فى جنون ملوحًا بنصل لامع فى يده .. وسمعه يردد عبارة واحدة :

ـ « ولا كلمة !! » .

الكاف واللام والميم .. واضح طبعًا أنه يأمره بالصمت وإلا ذبحوه .. ثم رأى أحدهم يضع يده على ذراع الأول مهدئًا من روعه :

ـ « سيبه .. ده بتاع ربنا ! » .

آه !.. إذن فهذا الرجل يعرفه ويعرف بلاهته المزعومة ..، ولهذا يردد عبارة (بتاع ربنا) المرادفة للفظة (أبله) ..، إن الرجل ملثم لكن عينيه قد حفرتا للأبد فى ذاكرة الكاهن .. وسيعرفه يومًا ما ..

كان الرجل الأول العدوانى ما يزال يرمقه فى شك ..، حين عاد الرجال يواصلون عملهم فى حمل الأجولة خارج المخزن بحذر وسرعة، وقد آثروا ترك فتانا فى سلام ..

إلى هنا كان الموقف مبشرًا بالخير ..

إلى اللحظة التى فوجئ فيها الجميع بـ (سعدية) تقتحم المكان ..!، كانت الحمقاء - كما هو واضح - قد سمعت جلبة من المخزن، وبمنتهى الغباء نهضت وحيدة لترى ما هنالك .. أو لعلها توقعت أن الفتى هناك فلم تتوقع شرًا ..

وقبل أن تفهم شيئًا وجدت نفسها بين المقتحمين، وفى ثوان وجدت نفسها مكممة الفم وقد لوى ذراعها خلف ظهرها ..!

حاولت المقاومة ودارت عيناها سريعًا لتقعا على الأخرس جالسًا فى تراخ - كالجوال الملقى - على الأرض ..

عندئذ فهمت القصة سريعًا ..

دارت مناقشة سريعةُ بين الرجال ..، فهم الكاهن فحواها دون جهد .. فهؤلاء الرجال التعساء قد تورطوا فى شاهدين على جريمة السرقة ، ولئن كان أحدهما معتوهًا فالآخر عاقل ويتمتع بلسان ذنق .. والمصيبة أن لثام أحد المقتحمين قد انزلق من على وجهه مما جعل الفتاة ترى وجهه كاملًا فى ضوء الكشافات .. ومن الواضح أنها عرفته .. وأنها ستتسبب فى خراب بيته عند أول فرصة ..

لم يكن الكاهن ليلومهم على قرارهم الذى هو القرار الوحيد الممكن .. ولو كان مكانهم لوجد نفسه مضطرًا إلى قتل الفتاة !، نعم .. لا حل سوى هذا .. ولو لم يكن فى حبائلهم ولو لم يكونوا أوغادًا ولصوصًا لتمنى لهم التوفيق فى قرارهم الصائب هذا ..!

لكنه مضطر أن يتصدى لهم ..

★ ★ ★

« لو أن لصًا هاجم دارك فلن يمنعه (التفادى) من سرقتك .. لن يمنعه من إيذاء أمك العجوز .. لن يمنعه من تمزيق كتب صلواتك وسكب زيت الموقد .. » .

★ ★ ★

كانوا منهمكين فى النقاش حول مصير الفتاة حين سمعوا ـ ورأوا ـ أغرب شىء تصوروه ..

حركوا مصابيحهم تجاه الفتى الأبله ليروا ما يحدث هنالك..

كان يقف متحفزًا مباعدًا ساقيه مثبتًا قدميه على الأرض، ثم إنه رفع عقيرته بصيحة لم يعرفوا لها معنى :

- « تشا سارايانا !! » .

ثم إنه مدّ ذراعيه المتصلبتين على أقصى امتداد لهما .. وصرخ :

- « جوانغ سارايانا !! » .

وأرجع رأسه إلى الخلف ونفش صدره :

- « كيو سارايانا !! » .

تبادلوا النظرات الحائرة .. ماذا دها هذا الأبله ؟.. وأية لغة هذه ؟ ألم يسمعوا أنه أخرس كالأسماك ؟.. على أنهم فهموا شيئًا واحدًا ..

أن هذا الفتى يحتشد لموقف عدوانى، وبعبارة أخرى يريد ضربهم وقد غدا تأديبه حقًا عليهم ..

لم يفهم هؤلاء الحمقى - أن الفتى قد قام بواجبه كاملًا، وأنذرهم بما لا يترك لهم عذرًا .. إنه سيبدأ الـ (سارايانا) وحذار من الـ (سارايانا) ثم إليكم بالـ (سارايانا) يا من لم تقرءوا الفصل الثالث..!

إن أحدًا لا ينكر ما حدث ..

ثم إن الظلام ساد المكان إثر سقوط المصابيح من أيدى حامليها، لكن هذا الشيطان كان يرى فى الظلام كالوطاويط..

كأن عشرة أقدام تطايرت فى وجوه اللصوص فى لحظة واحدة، ثم ارتطمت عشر قبضات فى بطونهم ..

لم يعد الفتى يرى رجالًا .. بل مئات من نقاط (الكارفا) الزرقاء - التى تسبب إصابتها فقدان الوعى - تلتمع فى الظلام .. وكان عليه أن يصيبها جميعًا حتى لا يلومه الأخ (ميانج) ..

نصل سكين هوى نحوه بسرعة الصوت، لكنه كان يملك سرعة الضوء .. فتمرغ أرضًا ثم رفع مشط قدمه ليركل حامل السكين فى أسفل بطنه ..، وسمعه يئن كالكلب الجريح .. وسمع - بأذن الخيال - الأخ (ميانج) يلومه :

- « ليس الـ (شورا) أيتها الزهرة الزرقاء ..!.. ليس الـ (شورا) !..

إنك تسببت فى إصابته بالشلل وأنت لم ترد سوى إفقاده وعيه ! » .

- « إغفر لى أيها الأخ (ميانج) ! » .

كان أحدهم يحاول الفرار ..

من ثم وثب الكاهن الأخير على ذراعيه .. ودار فى الهواء ليسقط أمام الرجل .. قال ذلك الأخير شيئًا ما .. ثم تلقى لطمة على جذور عنقه جعلته يهوى أرضًا كبالون مثقوب ..

أحد المتحمسين ينقضّ عليه بفأس وجدها على الأرض ..

تنحى الكاهن الأخير جانبًا تاركًا الرجل يندفع كالقطار المجنون فى طريقه، ثم وضع ساقه فى طريقه فهوى أرضًا ..، وبسقوطه كشف عن فقراته العصعصية أكثر نقاط الـ (كارفا) ثراء ووفرة ..، وهكذا يكفى سيف يد واحد على أية نقطة كى يجعله يغيب فى نعاس لذيذ ....

وهكذا انتهت المعركة ..

لم تستغرق سوى ثلاث دقائق، لكنها خلفت فوضى لاتُوصف .. وجثث عشرة لصوص لم يصدقوا بعد أن ما حدث حقيقى ..

كانت (سعدية) واقفة فى موضعها بعد أن أطلق سجانها سراحها .. ليشارك فى المجزرة وينال نصيبه منها ..

لم تبدل وقفتها .. ولم تأت بحركة واحدة من بداية المعركة حتى نهايتها .. فقد ألجمها الذهول ..

وكان صدرها يعلو ويهبط انفعالًا .. أما الفتى فقد وقف متصلبًا يرمق ضحاياه بضع ثوان ..

ثم استرخى قليلًا .. وهتف بصوت عال :

ـ « سوان هاتشاه (سارايانا) ! » .

أى : لقد أنذرتكم أننى سأستعمل السارايانا !، وهى العبارة التى تحتم تقاليد (النافاراى) عليه أن يقولها فى نهاية القتال ..، برغم أنه ـ فى حالته هذه ـ لم يكن هناك مستمعون على الاطلاق ..!

وفى تؤدة سار نحو الفتاة المتصلبة ..، وربّت على كتفها برقة .. وللمرة الأولى حاول أن ينطق عبارته العربية بفصاحة يُحسد عليها :

ـ « هم .. سيىء .. هم .. سيىء .. أنا أضرب سيىء ..! » .

لم تكن هذه هى ذروة البلاغة فى اللغة العربية .. لكن العبارة كانت مفهومة وواضحة .. لقد ضربهم لأنهم أشرار ..

وعبارته الثانية كانت واضحة بالمثل :

ـ « أنت .. سرّ .. أنت .. سرّ .. » .

لم تجب الفتاة .. فقط رفعت عينيها إلى وجهه واتسعتا وارتجفت شفتاها .. وفى حدّة همست متسائلة :

ـ « من أنت ؟! » .



٦ ـ افعل شيئًا يا دكتور !

عندما تغرب الشمس وتلطخ دماؤها ثوب المساء الأزرق .. عندئذ يبدأ فجر (النافاراى) ..

★ ★ ★

لم تنتظر الفتاة لتفهم أكثر ..

بادرت بالفرار إلى الدار حيث يغطّ أهلها فى نومهم، ومئات التساؤلات تتصارع فى ذهنها ..

على حين وقف (الأخرس) وحيدًا فى المخزن يتأمل ـ دون فخر ـ حصيلة عمله الباهر ملقاة على الأرض .. مهشمة الأطراف .. تئن ..

كان يعرف أن اللصوص سيلملمون جراحهم ويرحلون، وسيصمتون تمامًا فلن يجرؤ أحدهم على إعلان ما حدث .. حتى التعس الذى أصيب بالشلل سيزعم أنه أصيب فى أثناء عمله فى الحقل .. ولن يتكلم أكثر ..

لا مشكلة من هؤلاء ..

المشكلة الحقيقية هى الفتاة الثرثارة التى لن تصمت دقيقة واحدة بعد هذه اللحظة .. وستسرد ما حدث على أبيها وأمها وصديقاتها وجيرانها .. وستحكيه للأبقار والماعز والأشجار العجوز ..

عندئذ .. كيف يفسر ..؟.. وكيف يشرح ؟..

لقد كان مضطرًا إلى ما فعل .. لكن هذا الذى حدث قد أفسد مستقبله فى هذه القرية للأبد .. وعليه الآن أن يجد قرية أخرى ويلفق قصة جديدة ..

سار فى تثاقل إلى الليل الصامت خارج المسكن .. وشرع يتأمل النجوم التى - كعادتها - كانت مختلفة وسمجة وأقل ودًا من نجوم وطنه ..

- « (نافاراى) ..! » .

كذا همس وهو يوشك على البكاء ..

- « أنا بحاجة إليكم ... » .

★ ★ ★

لم تنم (سعدية) فى تلك الليلة ..

قضت الوقت تتأمل السقف المدعم بالجذوع الخشبية ، وتسترجع ذلك المشهد الدرامى الذى رأته منذ ساعات ..

لم تصدق حتى هذه اللحظة مشهد قضاء هذا الفتى الناحل المهزول على عشرة لصوص .. عشرة فتوات إذا صح التعبير ..

إن تفكيرها الذى كف عن النمو منذ رسبت فى المدرسة الإعدادية لم يجد سوى تفسير واحد جاهز لكل ما رأته ..

إن هذا الفتى هو .... بسم الله الرحمن الرحيم ....

نعم .. لا تبرير سوى ذلك يفسر العثور عليه فى المخزن فجأة .. وقضاءه على أولئك الأوغاد بطريقة قتال لم تر مثلها قط ..، والعينين الضيقتين العجيبتين .. هى تعرف أن الجان فى قصص الفلاحين تكون عيونهم مشقوقة بالطول .. لكن هل هناك ما يمنع أن يوجد جنّى شُقّت عيناه بالعرض ؟!..

دعك من اللغة (العفاريتى) التى استخدمها قبل ضرب الرجال .. لسوء الحظ تلاشى أى إعجاب من روحها ليحل مكانه الهلع .. الهلع من هذا الشيء الذى يغفو على بعد أمتار من مضجع أسرتها ..

ماذا تفعل ؟..

لن تجرؤ على إخبار ذويها فلن يصدقوها .. وإن فعلوا فمن يضمن لها ألا يفعل بهم هذا الجنّى ما فعله باللصوص ؟..

أفكار عديدة وهواجس شتى تصارعت فى ذهنها حتى الصباح .. إلا أنها - مع شعاع الفجر الأول - كانت قد أزمعت أمرًا ..

★ ★ ★

نسيت فى غمار الأحداث أن أذكر لكم اسم هذه القرية التى وقع عليها حظ الكاهن الأخير دون كل قرى الأرض .. اسمها هو .. (كفر بدر) ..!!

هذا بالطبع .. إذا ما كنتم تذكرون الاسم .. ألا يذكّركم اسم الفتى (إبراهيم السقا) بشىء ما ؟.. إنه المراهق الذى أنقذتُه من براثن النداهـة .. وتجـارب د. (عاصم) المخبولة ..، وبالطبع هو شقيق (سعدية) ..

أسمع بعضكم يغمغمون أن المسألة (واسعة شوية) ، فلهم أقول إن قراءتكم ما أكتب هى معاهدة ضمنية على أن تصدقوا ما تقرءون وأن أصدق أنا فيما أكتب ..، من غير العدل أن تصدّقونى حين أحكى عن صراعى مع (العسّاس) أو وحش (لوخ نس) .. ثم تأبون تصديقى حين أقول إن الصدفة جعلت الكاهن الأخير يظهر فى قريتى ...

لا خداع فى الأمر ...

لهذا كفوا عن إهانتى بترديد أننى مجرد نصّاب آخر ...

★ ★ ★

كانت الفتاة تذكر جيدًا دورى فى إنقاذ أخيها من النداهة .. كما سمعت شيئًا عن هوايتى السخيفة فى جمع الأشباح ..، من ثم قررت فى ذهنها أن د. (رفعت إسماعيل) هو رجل (يفهم فى هذه الأشياء) ..

وكانت قد رأتنى البارحة أسير مع (طلعت) زوج أختى عائدين من صلاة العشاء فى مسجد القرية ..، وأثار ذهولها - تقول هى - ما بدا على وجهى من خطوط معاناة وتقدم فى السنّ ...

إلا أننى - تقول هى أيضًا - كنت أوحى بالثقة .. أو على حد قولها (ارتاحت لوجهى السمح) ..

وهكذا ...

عند العصر كنت أغفو فى حجرتى على سريرى الخشبى المتهالك، حين دخلت أمى - رحمها الله - لتقول لى إن (سعدية) بنت أبى (إبراهيم) تريدنى ..!

أثارت ذهولى هذه الجرأة الوقحة .. فلم تصارحنى امرأة فى حياتى بأنها تريدنى برغم أنه لا بأس بي على الاطلاق، ثم عدت لصوابى فأدركت أنها تريد د. (رفعت) لا (رفعت) .. والغالب أنها ستأخذ رأيى فى أخيها (إبراهيم) الذى لا يأكل كما يجب .. أو يبول دمًا .. أو أى شىء من هذا القبيل ..

نزلت متثاقلًا لأرى ما تريد، مشوش الذهن من أثر النعاس ..

وعلى المصطبة التى فى مدخل الدار جلسنا ..

كانت مذعورة ولا ريب .. متوترة دون شك .. ترتجف ولا مراء ..

- « أغثني يا أستاذ (رفعت) ! » .

- « كلي آذان صاغية ... » .

فأخذت بأنفاس مبهورة تحكى لى القصة منذ وجدت ذلك الفتى في المخزن وحتى حطم عظام الأوغاد العشرة ..

كانت القصة غريبة .. وأنا لم أعهد فى (سعدية) حماقة ولا هستيريا على الأقل أكثر من أية فتاة فى عمرها ... ثم إن طريقة القتال التى تصفها لا تبدو مألوفة .. بل هى تذكرنى بالرياضات العسكرية اليابانية إلى حدّ ما (فى ذلك الوقت لم يكن مخلوق فى مصر قد سمع عن الكاراتى والكونغ فو) ..

- « والحل يا (سعدية) ؟.. ما المطلوب منى ؟ » .

- « أن تعرف حقيقة هذا الشىء ! » .

- « وهل أنا خبير عفاريت ؟! » .

- « يقولون كذلك وأكثر .. ألم تتصد للنداهة وأنقذت أخى ؟ » .

- « بلى .. لكنها كانت نداهة مزيفة .. أعنى نوعًا من ... » .



فأخذت بأنفاس مبهورة تحكى لى القصة منذ وجدت ذلك الفتى فى المخزن وحتى حطم عظام الأوغاد العشرة ..

اتسعت عيناها وتجمدت فيهما دمعتان .. لم يكن ثمة مجال للإفلات .. قلت متنهدًا :

- « حسن .. كيف أراه ؟ » .

★ ★ ★

فى المساء أحضرته لى ..

كنت جالسًا عند مدخل الدار أحسو كوبًا من الشاى مرتديًا الجلباب - على سبيل العودة للجذور - حين رأيت خيال الفتاة .. يسير جوارها فى استسلام شاب رثّ الثياب مُشوّش الهيئة مُغبرّها ..

من النظرة الأولى أدركت أنه ليس أبله أبدًا ..

ومن النظرة الثانية أدركت أنه غير مصاب بالعته المنغولى الذى فهمت من الفتاة أنه مصاب به .. لا توجد علامات أخرى من أى نوع مثل اللسان المتدلى المشقق وعنق أبو الهول والجمجمة الهرمية وثنية القرود فى كفه .. إلى آخر ما جفّ ريق أستاذتنا وهم يعلمونه لنا ..

إن هذا الذى أراه هو - ببساطة - رجل آسيوى ..!..

لا تسلنى كيف ولا من أين جاء ..

أما النظرة الثالثة فأدركت منها أنه قوى كالنمر .. برغم نحوله الملحوظ كانت عضلاته تامة الاكتمال يمكنك عدّ أليافها واحدة واحدة .. هو قوى كالنمر .. خفيف الحركة كالنمر .. متوتر دائمًا كالنمر ..

قالت لى النظرة الرابعة إنه حزين كالغروب .. كالخريف ..
أما النظرة الخامسة فأكدت لى أنه يدارى سرًا هائلًا بين ضلوعه . وأدركت من النظرة السادسة أننى سأثير توتره أكثر بكل هذه النظرات والامتحان البصرى الذى عقدته له !!

لهذا ابتسمت وأشرت له كى يدخل الدار ..

ـ « شاى يا حاجة .. » .

ناديت أمي وأنا أقود الفتى عبر الدرجات الترابية إلى حجرتى ، ثم أومأت للفتاة برأسى أنه يمكنها الانصراف ..

أجلست الفتى على الكنبة وجلست جواره محاولًا أن أبدو ودودًا غير عصبى ..، إلا أنه كان متوترًا تمامًا .. وأدركت من اختلاج عضلات فكيه أنه سيثب فى أية لحظة ليفرّ أو يوسعنى علقة ساخنة ..!

ـ « سيجارة ؟ » .

ـ « .... » .

بالطبع لم يأخذ السيجارة ولم يردّ ..، وجلبت أمى الشاى وهى ترمق الموقف فى حيرة فشكرتها .. وقدمت الكوب للفتى فأمسكه بكفه دون أن يشرب .. إن هذا الغريب .. كوب الشاى يتوهج بلهيب الموقد فلا يسعك سوى أن تلمسه بضع ثوان ومن حافته .. أما هو فيمسكه بكل ارتياح وامتلاك ، تلك الموهبة التى لا يملكها سوى مرضى الأعصاب الطرفية أو ذوى التحمل الفائق ..

ظللنا وحيدين بضع ثوان ..
ثم قررت أن أبدأ ....
بدأت أسأله عن نفسه فلم يبد عليه أى اهتمام .., لكننى أدركت أن استقباله لأسئلتى هو أقرب لاستقبال اللص لأسئلة المحقق الذى يبغى معرفة باقى أفراد العصابة !.. هو يفهم كلامى لكنه لا يريد الإجابة ..
سألته بالإنجليزية .. بالفرنسية .. فلم يبد أىَّ رد فعل إيجابى ..
أدركت أننا سنظل ها هنا حتى تقوم الساعة ما لم أجد فكرة أفضل، وهنا تذكرت أن عندى أعدادًا من مجلة (لايف) أحضرتها معى من المدينة .. وكانت إحداها تحوى مقالًا سخيفًا ومستفزًا عن زيارة أعضاء فريق (الخنافس) للتبت، وانبهارهم بالفلسفات البوذية .. المهم أن المقال كان حافلًا بصور الأديرة وتماثيل بوذا والرهبان صلع الرءوس فى ثيابهم الصفراء .. (إن من يذكرون أواخر الستينات يذكرون مشاكل حرب فيتنام وشعارات الهيبز وموضة الاهتمام بالبوذية وشعار هارى كريشنا هارى راما) ..
لم يخب ظنى ..!

لقد أثارت هذه الصور شغف الفتى .. وبدا منبهرًا إلى حدّ لا يُوصف وإن حاول عدم إظهار حماسه ..، وبعصبية وضع كوب الشاى على الأرض ..

عيناه تتسعان فى شوق ولهفة .. ثم ينظر لى وللمجلة ..

ـ « يمكنك أن تأخذها ! » .

ناولته إياها وأنا أكاد أبكى حسرة على ثمنها .. وقلت لنفسى إنه لو كان هناك الكثيرون من أمثال هذا الآسيوى المشتاق لـ (بوذا) فإن خراب بيتى قريب !..

تصفح الصور فى ذهول ويداه ترتجفان .. وبرغمه كان يردد كلمات بلغة لا أعرفها ..

ثم إنه أشار لى وللمجلة مدمدمًا مرات عديدة :

ـ « أنت .. أنت .. ماهايانا ! » .

أشعلت سيجارة .. وتنهدت فى صبر :

ـ « لحظة يا بنى .. ولو كنت تعنى أننى ذهبت هناك فأنا لم أفعل ! » .

ـ « ماهايانا .. » .

ـ « لا أفهم هذه الكلمة .. ولكن .. لنقل إننى الآن متأكد من أنك بوذى .. » .

بدا عليه عدم الفهم .. عينان زائغتان ترمقاننى فى حماقة .. من ثم أشرت بإصبعى إلى المجلة .. إلى صورة (بوذا) المتربع فى جلسته الشهيرة على عرش اللوتس .. وهتفت :

- « (بوذى) يا غبى .. مثل هذا .. هذا .. (بوذا) .. » .

بدا عليه الامتعاض حين فهم .. وأشار إلى نفسه فى عصبية :

- « أنا .. لا .. لا .. أنا .. (نافاراى) ..! » .

- « (نافاراى) ؟.. هل هى ديانة جديدة لا أعرفها ؟.. إن أديانكم الآسيوية هذه يا بنى تحتاج إلى عقل أصغر من عقلى بعشرين عامًا كى يتذكر أسماءها .. » .

يبدو أن لسان الفتى قد انفك من عقاله .. إن الصورة التى رآها قد أذابت الجليد نهائيًا فيما بيننا .. والغريب أن كل هذا يؤكد أنه آسيوى .. ولكن كيف ؟ ولماذا هذه القرية بالذات ؟..

- « والآن .. حان الوقت كى أفهم ... » .

سألته فى حزم .. فكانت النتيجة مباغتة .. رأيته ينهض وقد أدرك أنه قدّم لى أكثر مما ينبغى ..

- « أنصرف .. أنا » .

- « و .. لكن .. أنا لم أفهم بعد ... » .

لم يعطنى فرصة للمزيد من الكلام لأنه طوى المجلة فى قبضته .. واتجه للباب ...، حاولت أن أمسك بكتفه لكنه تملص ببراعة - كالحنكليس الذى لا أدرى ما هو بالضبط - واندفع خارجًا تاركًا إياى واقفًا كالحمقى فى وسط الغرفة ....

سيكون التفاهم مع هذا الفتى أعقد مما تصورت ..

لكنى لم أكن على علم بما سيحدث ...



٧ ـ إنـه هنـا !..

فيما بعد علمت أن (الأخرس) عاد أدراجه إلى دار (السقا) تحت أستار الظلام، كان حائرًا تائهًا في دهاليز هواجسه وأفكاره ..

لقد بلبلت الصور التى أريتها له أية خطط مستقبليه لديه، فهو واثق الآن من أن عالمه موجود ولم يتبدّل كثيرًا .. نفس الثلوج ونفس الرهبان وذات الأديرة .. كأنه لم يبرحه قط ..

ولكن .. كيف يصل إلى هنـاك ؟.. ما هى علاقتـه الجغرافية فى هذه الأرض بعالمه القديم ..؟.. من هو ذلك الرجل الأصلع النحيل الذى أراه الصور ؟.. ولماذا قادته الفتاة إليه ؟.. إن أسلوب تعاملها يوحى بأن هذا الرجل ذا المنظار (يفهم فى هذه الأمور) .. ولكن أية أمور هى ؟.. هل هو يفهم فى الـ (نافاراى) مثلًا ؟.. ولكنه بالتأكيد لم يسمع عنهم .. واضح فقط أنه يعرف شيئًا عن البوذيين ..

والأهم ـ والأغرب ـ هو هذه الطريقة العجيبـة فى (حبس الحياة) على الورق .. فلم يكن الفتى قد رأى صورة فوتوغرافية فى حياته ..!

★ ★ ★

كانت العاشرة مساءً حين دلف إلى المخزن ..

وكانت الفئران ـ صديقته ـ تتواثب هنا وهناك .. حين نزع جلبابه وتأهب ليبدأ تدريبات المساء ...

وهنا شعر بشيء غير عادى ..

ثمة شيء على غير ما يُرام فى المكان ..

انحنى على الأرض يتفحصها فى توتر باحثًا عن شيء يبرّر ما يشعر به من نذير غامض ..، وبإصبعين التقط الشيء الذى أثار ريبته .. الشيء الذى لم يتوقع أن يراه قط .. الشيء الذى يعنى أن قدره كامن فى مكان قريب ينتظر ..

هذا الشيء هو قرط صغير مُلقىً وسط حبيبات الذرة ..

ولم يكن قرطه ..!

هو يعرف جيدًا هذا القرط ويعرف صاحبه ..

أما الأسوأ فخصلة من الشعر الأسود الأملس ملقاة فى إهمال على بعد خطوات ..

طبعًا لا داعى للتساؤل عن مغزى هذا ....

لقد دفن هو مخلفاته بعناية وها هو ذا موضعها كما هو لم يمسه أحد .. ولم تنبشه الفئران ..

إن هذه الأشياء تخصّ واحدًا بعينه ..

واحدًا جاء باحثًا عنه عبر الأزمان والمسافات ..

واحدًا عرف أنه هنا .. وعرف كيف يتخفى مثله .. وهذا الواحد قد وصل لهذا المكان منذ ساعات بينما كان جالسًا مع الرجل الأصلع ذى المنظار ..

إنه (جينغ - تشا) دون أدنى شك ..!

لقد نسى الكاهن الأخير الورقة التى تتحدث عن طريقة (شانكين) لأنه انتزعها من كتاب الـ (شوكارا) إذ حاول الهرب .. ولقد وجدها (جينغ - تشا) ومن معه ، وأدركوا أن هذا هو الطريق الذى فرّ منه ، وأدركوا أن كتاب الـ (شوكارا) الثمين معه ..

من السهل إذن أن تتخيل ما حدث ..

لقد عكفوا شهورًا على دراسة الـ (شانكين) حتى توصّل (جينغ - تشا) - وربّما آخرون - إلى السفر عبر الأثير لاحقين به ، ومن المؤسف هنا أن هذه الطريقة اللعينة لا تقود إلا إلى مكان وزمان واحد كما يبدو .. وهم يأملون أن يجدوا طريقًا ما للعودة بعد أن ينتهوا منه ..

للمرة الأولى تحرك فى أعماقه - وأحشائه - شعور جديد من نوعه لم يخبره من قبل .. الرعب !..

إن (جينغ - تشا) ليس بالخصم السهل ..

هو يعرف كل أسرار الـ (نافاراى) تقريبًا .. وهو أستاذ فى التفادى وبالطبع لديه خبرة لا بأس بها بالقتال الإيجابى (سارايانا) .. الأسوأ هو أنه ترعرع مع الكاهن الأخير ويفهم جيدًا كيف يفكر وكيف يحلم وكيف يتصرف ..

لن يسهل عليهم أخذ شىء من الكاهن الأخير وهم يعلمون ذلك .. لكن هب انهم عذبوا أفراد هذه الأسرة الطيبة لإجباره على الكلام .. هذه الأسرة التى لا ذنب لها سوى أنها آوته ..

هو لا يتحمل رؤية أعواد بامبو مدببة تحت أظفار (سعدية) ، أو ثعبان يلتف حول عنق أبيها ..

إن للـ (ماهايانا) أساليب تعذيب عبقرية تعلموها من الصينيين .. عندئذ لن يجد مفرًا من الكلام .. بل الثرثرة .. ويوم يحصلون على الكتاب .. من يدرى ما سيحدث بعدها ؟

المصيبة الحقيقية هى أن (جينغ ـ تشا) قد أخذ أهبته للتخفى والذوبان وسط أهالى القرية كما فعل (هن ـ تشو ـ كان) ..

لهذا يتحتم أن يغادر القرية أو على الأقل يعرف مكان هذا الشيطان ..

ولكن كيف ؟..

من السهل أن تبحث عن وافد جديد على القرية .. وافد يتظاهر بالخرس وملامحه آسيوية .. هذا سهل .. سهل لو كنت تتكلم العربية !..

قل لى بربك كيف تسأل حمقاء مثل (سعدية) عن شخص له هذه الصفات مستعملًا لغة الإيماءات ؟!..

إن الأمر مستحيل أو هو أقرب ما يكون إلى الاستحالة ..

وهنا بدأ (هن ـ تشو ـ كان) يفكر فى شخصى المتواضع ..

إن شيئًا ما فى ذلك الأحمق ذى المنظار يوحى بالثقة .. إن عينيه صادقتان فيهما شىء من الذكاء .. ثم هو ـ قبل كل شىء ـ يعرف (التبت) ويعرف رهبان الـ (ماهايانا) .. وربّما أكثر ..

فلماذا لا تحاول مصارحته ..؟

ولماذا لا تجرب طلب عونه ..؟

ولماذا لا تلقى بعبء السر الذى يثقل كاهلك بعض الوقت ؟

★ ★ ★

ولهذا ـ فى الصباح الباكر ـ أخبرتنى أمى أن المعتوه الذى زارنى ليلة أمس قد عاد يبغى مقابلتى ..

- « وهل (سعدية) معه ؟ » .
- « لا يا بنى .. يبدو أن هذا الأبله قد أعجب بك ! » .
- «إن كل بلهاء العالم يحبوننى يا أماه ولا أدرى سبب ذلك ! » .

ابتسمت فى رقة وإن لم تفهم دعابتى تمامًا ..

ثم إنها خرجت من الحجرة .. وبعد ثوان لمحت وجه الفتى المغلق إذ دلف من الباب وخطوته مليئة بالتردد والحيرة ..

جلس - كما طلبت منه - على الكنبة الخشبية .. وشرع يعابث طرف القماش الرخيص الذى يغطيها باحثًا عن بداية مناسبة لما ينوى أن يخبرنى به ..

بضع دقائق .. ثم همس بصوت غليظ :

- « (جينغ - تشا) ! » .
- « من ؟ » .
- « (جينغ - تشا) .. هنا ! » .

تنحنحت وأشعلت سيجارة ومضيت أجوب الغرفة جيئة وذهابًا .. وأنا أغمغم كمن يحدث نفسه :

- « اسمعنى يا بنى .. لربّما أبدو حكيمًا .. ولربّما يوحى منظارى السميك بعلم لا أملكه .. أنا أعترف أننى أبدو أذكى مما أنا عليه .. ولكن .. » .

وصرخت فى غلّ مشيرًا نحوه بطرف السيجارة :
ـ « .. إذا ظننت أن علمى يصل إلى حدّ فهم ما تقول .. ومعرفة هذا الـ (جينغ ـ تشا) وما إذا كان اسمًا أو فعلًا .. فأنت مخطئ ! » .

لم يتحرك .. ولم تختلج عضلة فى وجهه ..

امتصصت عقب السيجارة فى جشع .. وقلت بعد أن هدأت نوعًا :

ـ « أنا أمقت من يحدثوننى وكأننى على علم بكل شىء .. أرجو أن تتحدث بشىء من التفصيل .. ومن بداية القصة ..» .

لعق شفتيه بطرف لسانه .. وبدأ يتكلم ..

وكانت هذه هى البداية ..

بداية دورى أنا ..

★ ★ ★

استغرق الحديث نهارًا كاملًا ..

وكان أعجب حوار يمكن أن يدور بين رجلين ..

لك أن تتخيل ذلك المزيج العجيب من العربية الرديئة والإيماءات ـ التى تصل أحيانًا إلى الوثب عبر الغرفة ـ والإشارات ورسم الأشكال التوضيحية على (بلوك نوت) قديم بقلمى ..

فهو ـ مثلًا ـ لم يكن قادرًا على شرح معنى كلمة (نمر) لى .. فكان يكشر عن أنيابه ويزأر .. من ثم كنت أرسم له أسدًا كروكيًا وأسأله :

ـ كهذا ؟ » .

فيهز رأسه أن لا .. من ثم أرسم له كلبًا .. وتمساحًا .. ونمرًا حتى أدرك أنه يعنى الأخير ..

وكنت أنا أيضًا أزداد خبرة بمفردات لغته .. لكن بعض الألفاظ كانت عقبة حقيقية .. فمثلًا (الكاهن الأعظم) لم يستطع هو التعبير عنها ولم أستطع أنا فهمها .. إلى أن مدّ يده إلى صدر الجلباب وأخرج المجلة إياها وفتحها على صورة أحد رهبان التبت .. وفتح ذراعيه ليوحى لى بمعنى (كبير .. كبير جدًّا) ..

وهكذا فهمت أنه يعنى (الراهب الأكبر) أو (الكاهن الأعظم) .. وحرصت على أن أتذكر الكلمة : (ساكاسورانا) حتى لا نعود لذات المشكلة مرة أخرى .. (ساكاسورانا) .. (ساكاسورانا) .. أدعو الله ألا أنساها ..!

وحين تحدث عن نفسه باعتباره (ناجا سورانا) أدركت أن (سورانا) معناها (راهب) أو (كاهن) أما (ساكا) فمعناها (أعظم) .. إذن فما معنى (ناجا) ؟..

فهمت المعنى حين أشار لنفسه مرارًا مؤكدًا :



إلى أن مدّ يده إلى صدر الجلباب وأخرج المجلة إياها وفتحها على
صوره أحد رهبان التبت ..

- « بعد لا ..!.. بعد لا ! » .
- « تعنى أنك الأخير ..؟ » .
- « نعم .. نعم .. أخير ... » .
إذن (ناجا) معناها : الأخير .. وهذا الفتى هو آخر (سورانا) على وجه الأرض .. أى أنه - بالفعل - هو الكاهن الأخير ..

وهكذا .. بدأ جدار عدم الفهم يتهاوى ..

أية لذة ونشوة غمرتنى وأنا أرتاد هذا العالم البكر ..! عالمًا لم أتخيل حتى وجوده .. وسنوات نضرة خضراء من المعرفة تضاف لعمرى أنا الذى طويت الأميال والأزمان إلى أرض باردة تغطيها الثلوج .. ويحلق فيها الرهبان فوق الأرض ..

إن الفتى لا يكذب ..

فالصدق يشعّ من عينيه وصوته وخلجات يديه ..

لكنى لا أصدق حرفًا ..!.. وهذه مشكلتى وحدى ..

إنها معادلة صعبة جوابها الوحيد أن يكون الفتى مخبولًا .. أى أنه يخرف لكنه يؤمن تمامًا بهذا الخرف ..

لكن الفتى عاقل تمامًا ..

حدسى يخبرنى بذلك .. وخبرتى الطبية التى - وإن شككت فيها - لن تعجز عن معرفة الجنون حين تراه ..

يبقى إذن احتمال واحد ..

أن يكون هذا الفتى عاقلًا وصادقًا معًا ..

وعندئذ .. يكون (النافاراى) حقيقة لا غبار عليها ..



٨ ـ الهـرب ..

حكى لى (هن ـ تشو ـ كان) ـ أو (الأخـرس) أو (الزهرة الزرقاء) أو (الكاهن الأخير) ـ كل شىء عن عقيدتهم .. كما حكى لى ما عرفته أنت فى الفصول السابقة ..

وسأحاول هنا أن ألخص ما قاله بألفاظى أنا .. فلم يعد داع لأن أغرقك فى تفاصيل الحوار الركيك الذى شربته وحدى حتى الثمالة ..

قال لى الفتى إن (النافاراى) ـ مثلها مثل البوذية ـ ليست ديانة .. بل هى فلسفة للتأقلم مع الحياة(★) .

وقال لى إنها انفصلت عن البوذية بعد ما سئم مؤسسها (شيان ـ قه) من كل تلك السلبية والانفصالية التى تتعامل بها البوذية مع العالم ..

إلا أنها ظلت أمينة على الكثير من فلسفات (بوذا) ..

(★) مذهب (النافاراى) هو وليد خيال المؤلف بأكمله، لكن ما ذكر هنا عن البوذية صحيح تمامًا .

كان (بوذا) هو النبيل (سيدهارتا جوتاما) من (نيبال) الذى دربه نساك (البراهمانا) على التقشف ...، إلا أن الفتى ظل ظامئًا إلى شئ لا يدرى كنهه .. ظل ظامئًا إلى الحكمة وفهم الكون ..

وفى (بودجايا) شمال الهند ساقته قدماه إلى شجرة، جلس يتفيأ فى ظلها ويتأمل ...، ويقال أنه فهم كل شئ فى جلسته تلك ..

وبعد أيام خرج يخبر الناس أنه وصل إلى الحقيقة ..

فما هى هذه الحقيقة ؟..

قال (جوتاما) إن هناك أربع حقائق تحكم البشر .. هذه الحقائق هى المعاناة، والرغبة فى شئ ما تولد هذه المعاناة، لهذا يجب إطفاء الرغبة فى هذا الشئ ...، ويجب على المرء أن يتعلم كيف يطفئ رغبته هذه ....

ولإطفاء الرغبة فى كل شئ وضع (جوتاما) مبادئه المتمثلة فى العجلة الثمانية التى يقدسها البوذيون، والتى يمكن تلخيصها فى ثلاث نقاط :

١ ـ سيلا : أى السلوك الخلقى .. لا تسرق .. لا تقتل .. لا تكذب .. الخ ..

٢ ـ سمادهى : يجب أن تتعلم التأمل والتركيز .

٣ ـ براجنا : أى الحكمة .. يجب أن يدرك المرء أن كل شىء وهم .. حلم ..

من الصعب فهم هذه الفلسفة .. ومن المستيحل تطبيقها ..

لكن البوذية انتشرت فى آسيا إلى حدّ كبير .. ومنها نشأ فرعان أساسيان هما :

١ ـ الهينايانا (الناقلة الصغيرة) وهى منتشرة فى سيلان وبورما وسيام ولاوس وكمبوديا ، ويرتدى رهبانها الثياب الصفراء ويحلقون رءوسهم تمامًا .

٢ ـ الماهايانا (الناقلة الكبيرة) وقد سبق لنا الحديث عنها .

ويرى البوذيون أن العمل (كارما) يؤدى لنتائج بعضها ضارّ ، لهذا يحاولون الوصول لحالة الانطفاء الدائم التى تلغى نتائج الـ (كارما) وذلك عن طريق التأمل المستمر .

ويسمون حالة الانطفاء الدائم باسم (نرفانا) .

وهى اللحظة التى تتلاشى فيها علاقة المرء بما حوله ، ويكتمل استغناؤه عن الحياة المادية .

وجاءت الـ (نافاراى) لتلغى أكثر هذه المعتقدات ..

وكما قلنا سابقًا تعتمد فلسفة الـ (نافاراى) على تفادى الأذى والتسامح إلى أقصى حدّ ممكن ، لكن إذا زاد الأذى عن حدّه كان الردّ .. الردّ القاسى المرير الذى يدمّر الخطر تمامًا ..

ويرتدى الـ (نافاراى) ثيابًا زرقاء ويعقصون شعورهم خلف ظهورهم ويعلقون قرطًا فى آذانهم ..، كما أنهم لا يرفضون منتجات الألبان على عكس البوذيين المخلصين ..

إن سيطرة الروح على الجسد هى جوهر فلسفة الـ (نافاراى) ..

وهم يؤمنون أن البوذيين نصّابون .. فى حين يؤمن البوذيون أن الـ (نافاراى) أوغاد ..، ويؤكدون أن كتاب الـ (شوكارا) مسروق منهم لأنهم هم الأصل فى كل هذا الهراء ..

وأخيرًا .. لا يعرف بوجود الـ (نافاراى) سوى عدد محدود جدًا من أهل (التبت) لأنهم متحفظون .. وأسرارهم لا تخرج للعالم الخارجى أبدًا ..

لهذا ـ أرجوكم ـ ليبق هذا الكلام سرًا خاصًا فيما بيننا ..!

★ ★ ★

وفى النهاية علمت ما كان من موضوع (جينغ ـ تشا) الوافد الجديد على القرية ، وعلمت أن سرّ إطلاعى على كل هذا هو معرفة ما يمكن أن أسهم به فى العثور عليه .. فأنا أتكلم العربية وأنا ابن القرية وأعرف ما ينبغى عمله لإيجاد (نافاراى) ضائع ..!

أدركت دون جهد أن (هن ـ تشو ـ كان) يخشى (جينغ ـ تشا) كالموت ذاته ، وأدركت كذلك أن كارثة دانية قد لاحت فى أفق حياتى ..

سألته وأنا لا أتوقع إجابة :

ـ « وأين أخفيت الكتاب ؟ » .

لا إجابة بالفعل .. هو يثق بى لكن ليس إلى هذا الحدّ .. فليكن ..

وبعد أن غادرنى الفتى عائدًا إلى عمله ، ودّعت أمّى وركبت سيارتى متجهًا إلى المركز .. كان الغروب يزحف على القرية حين قابلت المأمور ، الذى تربطنى به علاقة حميمة بعد قصة النداهة إياها ..

فما إن رآنى حتى احتقن وجهه وتطاير اللعاب من فيه وشرع يصرخ فى جنون كأنه يموت :

ـ « أخيرًا !.. هيه أيها العجوز !.. تذكرت أصدقاءك !.. هاه ! » .

ظللت واقفًا فى هلع منتظرًا حتى تنتهى (عاصفة) مرحه وترحيبه .. وأنا أتساءل فى سرى : لماذا يصرخ هذا الرجل ؟!..

وما إن هدأ حتى جلس منهكًا يلهث وطلب لى شايًا .. ثم سألنى عن الريح الطيبة التى ألقت بى ها هنا .. فقلت وأنا أناوله لفافة تبغ :

- « أبحث - لأسباب يطول شرحها - عن غريب ظهر فى القرية أمس .. » .

هرش رأسه فى حيرة .. ثم غمغم :

- « مطلب غريب لكن يسهل التحقق منه .. يكفي إرسال الخفراء فى جولة سريعة .. ولكن لمه ؟ » .

- « سيطول شرح أسبابى كما قلت .. ولا تنس أنك مدين لى بخدمة .. » .

- « هذا مطلب عادل ... » .

وهكذا ...

حين عدت لدارى كنت واثقًا أن غريبًا لم يزر القرية أمس .. أو - بمعنى أدق - لم يره أحد بعد ..

هذا يعنى أن (هن - تشو - كان) واهم أو كاذب .. أو أن (جينغ - تشا) أجاد الاختفاء فى هذا البلد ، فحتى عمال الترحيلة كانوا معروفين لدى مقاولى الأنفار ومن العسير أن يندسّ أحدهم بين صفوف هؤلاء العمال ..

والسؤال هنا هو ..

هل هو يبحث عن الكاهن الأخير أم هو يعرف مكانه وينتظر ؟

عندئذ - لو صحّ كل هذا السخف يكون (هن - تشو - كان) فى مأزق حقيقى ، والموت يترصده فى كل لحظة ..

ولكن .. ما شأنى أنا بمشاحنات كهنة (النافاراى) من أجل كتاب عمره عشرة قرون ؟.. إننى - والحق يقال - إنسان غريب .. غريب .

★ ★ ★

إلا أن تلك الليلة كانت أسود ليالى حياتى ..

طيلة الوقت يدور شريط المحادثة فى ذهنى ، وأسمع أصواتًا وأرى وجوهًا .. وثمة شعور عارم بضرورة أن أقحم نفسى فى هذه القصة ..

وحين صاح الديك - أخيرًا - كنت قد أزمعت أمرًا ..

إلا أننى حين جلست لألتهم الفطور الذى أعدته لى أمى فوجئت بالفتى آتيًا لزيارتى ، وكانت نظرة أمى إليه غنية عن كل كلام .. ألن يتركنا هذا المعتوه وشأننا ؟! » .

أزحت طبق البيض المقلى تجاهه .. وقلت باسمًا :

- « هيًا يا (هن - تشو - كان) .. بسم الله ! » .

إلا أنه لم يبد استجابة .. كان واضحًا أنه قضى ليلة أسود من قلب الكافر ، أعصابه منهارة تمامًا .. والإرهاق على كل تجاعيد وجهه التى تضاعفت خلال ساعات .. فقط دمدم بعصبية :

- « (جينغ - تشا) ! » .

- لم أجده ... » .

- « هو .. هنا .. » .

التهمت لقمة كبيرة ولعقت شفتى التى لوثها صفار البيض .. وقلت :

- « أعرف .. لكنهم لم يجدوه .. » ..

- « عض شفته السفلى فى حنق :

- « هذا .... خطر .. » .

أنهيت طعامى .. ثم بدأت أطرح عليه الفكرة التى ولدت عندى بعد الليلة الفظيعة التى مرت بى ..

لماذا لا يهرب ؟..

إن القاهرة كبيرة - حتى فى ذلك الزمن - ويستطيع فيل كامل أن يذوب فيها فلا يجده أحد ، إذن لماذا لا ينزح للقاهرة ؟

ولماذا لا يعيش عندى فى شقتى حتى يقضى الله أمرًا كان مفعولا ؟

ولماذا لا يحاول العودة للتبت ؟.. أنا لا أعرف إذا ما كانت هناك سفارة للتبت فى مصر ولا أعرف كيفية استخراج تأشيرة للذهاب إلى هناك .. لكنى - على الأقل - أستطيع شحنه إلى (نيبال) أو (الهند) أو (الصين) حيث يكون على مسافة (فركة كعب) من وطنه ..!

هو لن يكلفنى شيئًا - خاصة وهو لا يأكل اللحوم - وسيسلينى إلى حدّ بعيد فى وحدتى ، وسيطرد الأشباح من غرفة نومى ، ولربّما نجحت فى إقناعه بتنظيف المنزل والطهى مقابل إقامته !..

واستغرق الأمر وقتًا لا بأس به لإقناعه .. فقد كان ضائعًا تمامًا ولا يدرى ما هو الصواب .. لكنه فى النهاية وافق ..

ثم إننى ذهبت إلى (السقا) فأخبرته بما انتويه .. طبعًا قلت له إن حالة الفتى تهمنى طبيًا وسأقوم بعرضها على زملائى فى كلية الطب ، وأفهمت (سعدية) أن الفتى ليس شيطانًا بل هو مصاب بمرض من نوع نادر يجعله يتصرف بأساليب عجيبة ..

فى نفس الوقت تسلل الفتى إلى المخزن فحفر الأرض واستعاد كتابه الثمين ثم أعاد ردم الحفرة ، وخرج إلينا ليودع - بفتور واضح - الأسرة التى استضافته فى هذا الزمن ..

لم يكن الفراق مؤثرًا لأن (سعدية) لم تعد تميل إليه بل هى تخشاه كثيرًا فى الواقع ..

ولهذا - وحين ركب الفتى السيارة جوارى - بدا لى أن صفحة القرية قد أغلقت نهائيًا فى كتاب حياته ..

كان متوترًا راغبًا فى الفرار ..

وقد أنساه التوتر أن يندهش ..

فقد كانت هذه هى أول سيارة يركبها فى حياته ..!

وطيلة الطريق المرهق إلى القاهرة لم ينبس ببنت شفة ، حتى أدركت أننى قارفت خطأ جسيمًا بقبولى اصطحاب هذا الصنم إلى دارى .. ولو كنت بالذكاء الكافى لاقتنيت قطًا أو كلبًا ..

لكننا لا نملك أن نختار أخطاءنا !

★ ★ ★

على أن حياتى لم تكن مملة إلى هذا الحد مع (هن ـ تشو ـ كان) ففى الساعة الواحدة من صباح ذلك اليوم صحوت من النوم على صوت جلبة آتيه من غرفة المكتب فى شقتى .. وكنت أعلم أن الفتى يغفو هناك على حشية فرشتها له على الأرض ، لأنه لم يعتد نوم الأسرة .. وكانت هذه هى ليلته الأولى فى دارى .. لهذا أضأت الأنوار وهرعت إلى هناك .. فوجدته واقفًا على الأريكة متخذًا وضعًا متحفزًا للقتال وهو يحرك ذراعيه حركات سريعة عصبية لا داعى لها أبدًا ..

يا لك من معتوه ..!!

ـ « هل جننت أخيرًا ؟! » .

كذا صرخت فيه بعصبية والنعاس لم يبرح جفنىّ بعد ..

ـ « تدريب .. أنا .. قتال ! » .

ـ « وهل التدريب لا يحلو لك إلا فجرًا ؟! » .

لوح بذراعه فى الهواء .. وهتف :



فوجدته واقفًا على الأريكة متخذًا وضعًا متحفزًا للقتال وهو يحرك
ذراعيه حركات سريعة عصبية لا داعى لها أبدًا ..

- (نافاراى) .. ليل ..! » .

بدأت أفهم .. فهؤلاء القوم مصممون على مخالفة الطبيعة البشرية فى كل شىء ، وهم لا يجدون وقتًا أفضل للتدريب سوى حين ينام خلق الله من معدومى اللياقة البدنية مثلى ..

ولكن .. من يشرح هذا للجيران ؟..

وهكذا اتخذت الإجراء الوحيد الممكن .. أحضرت له قميصًا وبنطالًا من ثيابى وجعلته يرتديهما .. وكان القياس واحدًا تقريبًا ، ثم أننى جررته من يده وأغلقت باب الشقة صاعدًا إلى سطح البناية ..

كان السطح خاليًا سوى من بقايا قرميد مهشمة .. وبعض أكوام الرمل ، وكان كل هذا يتلألأ فى ضوء القمر الفضى البارد .. ولما لم يكن هناك من يرانا سوى خالقنا ؛ جلست على قالبين من القرميد وأشعلت سيجارة ، ثم لوحت بذراعى فى الهواء طالبًا منه أن يستمر ..

- « هيًا .. أرنى كيف تتدرب .. » .

بدا عليه الرضا لشعوره بالهواء الطلق .. وبدأ يتنفس بعمق .. ثم أنه انتزع القميص ليقف عارى الجذع كاشفًا عن أجمل - وإن لم يكن أضخم - تكوين عضلى رأيته فى حياتى .. كل عضلاته مرسومة محددة كأنما فى أطلس تشريح ملون ..، وعلى ظهره رأيت وشمًا لتنين مجنح ..

وبين دخان التبغ لمحته يأتى بحركات تمهيدية بطيئة ..
ثم بدأ يتحرك .. يثب .. يتراجع .. يهجم .. يضرب خصومًا وهميين ويتفادى ضرباتهم .. يتقلب على الأرض ..

وسقطت لفافة التبغ من أناملى دون أن أشعر ..

إن هذا الذى أراه ليس حقيقيًا .. لا يمكن أن يكون هناك توازن عضلى بهذه الدقة والرشاقة .. لايمكن أن يكون هذا الجسد من لحم ودم ..

★ ★ ★

عندما تغرب الشمس وتلطخ دماؤها ثوب المساء الأزرق .. عندئذ يبدأ فجر الـ (نافاراى) .

★ ★ ★

كان الكاهن الأخير يطير فى الهواء .. يسقط على ذراعيه .. يتقلب .. يرفع وجهه نحو قرص القمر ..

لم يعد هناك وكذا أنا .. لقد ذاب تمامًا .. تلاشى فى ذلك السرّ الذى يحكم قوانين الكون ودوران الذرات وهجرات الطيور ..

امتزج بالنجوم والليل والقمر حتى غدا جزءًا منها ..

كنت أرمق فى انبهار (السيلويت) الأنيق المميز له يتحرك أمام قرص البدر المكتمل ، فأدركت أن هذا المشهد هو الوحيد الجدير بأن يُوضع أمام هذه الخلفية الكونية الخالدة ..

ثم كان يدور فتلتمع قسماته وعضلاته في الضوء الفضى الخافت، ولم يكن يشعر بوجودى.. بل - أراهنكم - لم يكن يشعر بوجوده هو نفسه ..

عندئذ .. وعندئذ فقط .. أدركت أن هذا الفتى صادق فى كل حرف قاله لى .. لقد كان إنسانًا مختلفًا تمامًا عن الآخرين ..

لقد كان زهرة زرقاء ..

★ ★ ★

فى الصباح الباكر أزمعت أن أريه القاهرة ..

مدينتى الجميلة العجوز المنهكة تتمطى تحت شمس الصباح فى كسل ..، ومعه نخترق الدروب ..

كان مندهشًا من كل شىء .. سأل عن كل مكان .. ويثير فضوله كل ما يراه ..

على أن اهتمامه الخاص كان منصبًا على الحافلات .. فهو لم يرها من قبل .. وبالطبع لم يرها فى حالة التكدس الجسدى المريع المميز لحافلاتنا ، ولقد بدا لى من الطريف أن أدعوه إلى ركوب إحداها ..

وشرعت - من طرف خفى - أرمق ذهوله ومحاولته ألا يصطدم بتلك أو يدوس قدم ذاك ، لقد كان هذا تحديًا رهيبًا حتى للكاهن (نافاراى) مدرب على التفادى ..

ولم يثر منظره أية ريبة لأنه بدا للقوم مجرد سائح آسيوى آخر .. إلا أن حادثًا صغيرًا كاد يكشف أمرنا ..

إذ فجأة سمعنا صرخة امرأة، وسمعنا صراخ الناس يدعو السائق أن يتجه لمخفر الشرطة فعلمت أنها القصة المعتادة: هذه المرأة لم تجد حافظة نقودها ..، وهنا وجدت شخصًا - بادى الشراسة - يثب من نافذة الحافلة .. مدّ أحدهم يده ليمنعه لكن اللص أخرج مدية بشعة المنظر لوّح بها فى وجهه مهددًا .. ثم واصل هربه من النافذة .. وقافزًا إلى الشارع بين صفوف السيارات ..، نظرت بطرف عينى إلى (هن - تشو - كان) لأرى ردّ فعله .. فوجدت علامات اللامبالاة كاملة على وجهه فأدركت أنه لا يريد لفت الأنظار أو التدخل ..

وفى الشارع تصدى أحد الشباب المتحمسين للص .. إلا أن هذا بادره بضربة خفيفة من المدية جرحت وجهه، ثم أطلق ساقيه للريح تاركًا الشاب ممسك وجهه وقد انثنى على نفسه ..

كانت هذه هى الغلطة التى ارتكبها اللص وما كان ينبغى أن يفعل ..!

إذ فى ثوان تبدلت ملامح (هن - تشو - كان) .. ورأيته يثب كالنمر من نافذة الحافلة بين أجساد الناس المحتشدين الذين يرقبون ما يحدث ..

ورأيته يركض كالفهد بخطوات لا تصدّق خلف اللص ..

شعر اللص أن هناك من يقتفى أثره فزاد سرعة جريه .. لكن (هن ـ تشو ـ كان) كان يقطع فى كل وثبة أربعة أمتار كاملة ، وأخذت المسافة بينه وبين اللص تضيق .. وتضيق ..

وهنا أدرك هذا الأخير أن الصواب فى التوقف والاشتباك .. ومكشرًا عن أسنانه كالذئب وقف فى وجه (هن ـ تشو ـ كان) ملوحًا بمديته بما معناه : الويل لك إن تماديت ..!..

كنا بعيدين عن المشهد .. لكننا جميعًا سمعنا (هن ـ تشو ـ كان) يصرخ بصوت مرعب :

ـ « تشا سارايانا ! » .

قالها وهو يباعد ساقيه .. وبالطبع ذهل اللص من هذا لكنه واصل التلويح بسلاحه هناك حيث وقف على الرصيف بمنتصف الشارع ..

ـ « جوانغ سارايانا ! » .

ومدّ ذراعيه إلى أقصى امتداد لهما مباعدًا ما بين أصابعه ..

ثم ....

ـ « كيو سارايانا ! » .

وهو يرجع رأسه للوراء .... ثم ....

بعد ثانية تعالت أصوات ركاب الحافلة يطلبون الرحمة للصّ الذى تحول إلى خرقة صالحة لتلميع الأحذيـة .. وبالطبع لم تعد فى فمه سنّ واحدة سليمة ..

يا لك من مجنون يا (هن ـ تشو ـ كان) !.. ستجلب علينا القاهرة كلها وكل رجال الشرطة .. وعندئذ ستبدو قصتى عن الـ (نافاراى) عجيبة بعض الشىء .. فضلًا عن احتمال لا بأس به أن يعرف عدوك بهذه القصة ..

ـ سوان هاتشاه سارايان !! » .

كذا هتف وهو يرمق بقايا ضحيتـه المكنّسة على الرصيف ..

إلا أننى كنت قد لحقت به وجذبته من ذراعه لأبعده عن الزحام الذى بدأ يتبلور حولنا .. ومضينا نمشى حثيثًا بين الفضوليين الذين لم يجرؤ أحدهم على إيقافنا لأن الذهول كان يعم الجميع ..

ـ « أهنئك على الدعاية التى صنعتها لنفسك !.. سنراك فى التليفزيون قريبًا تدرّس الدفاع عن النفس .. » .

ـ « أنا .. أضرب .. سيئ ..! » .

ـ « نعم .. نعم .. ولكن سنواصل هذه المناقشة الفكرية فيما بعد .. » .

★ ★ ★

« كالنمر الذى يفضل النوم فى الشمس، فلا يخرج مخالبه إلا لحظة الخطر الحقيقى .. » .

★ ★ ★

هادئة مضت الأيام، ولكنها لم تكن مملة قط ..

تعلمت منه الكثير عن فلسفة الـ (نافاراى) و (التبت) والبوذية، وتعلم منى الكثير عن العرب والفراعنة وأكل الفول المدمس ..!

الحق أقول لكم إنه كان ظريفًا لطيف المعشر ..، وكان يتعامل مع الحياة ببراءة وانبهار يلذان للنفس، بالاضافة إلى أن روحه كانت أطهر من قطرات المطر .. وأنقى من الثلج الأبيض ..

أما عن إقامته فى دارى، فلم تكن ثمة مشكلة لأن الجيران اعتادوا كثرة أسفارى وغرابة أطوارى .. ولم يجدوا غرابة فى أن أستضيف صديقًا آسيويًا فى دارى ..

كان الفتى قد ارتدى بذلات عصرية أنيقة ابتعتها له، وشذب خصلات شعره، واعتاد وضع منظار أسود فاخر .. فبدا كأنه رجل أعمال ناجح قادم من (هونج كونج) ..

صحيح أن هناك خطرًا لا بأس به فى أن يستوقفه أحدهم سائلًا إياه عن جواز سفره .. وعندئذ سيُعتبر متسللًا للبلاد؛ لكن هذا لم يحدث حتى الآن لحسن الحظ ..

★ ★ ★

في ذلك اليوم الكئيب حدث ما أخشاه ..
كان (هن ـ تشو ـ كان) قد نزل يتجول بالجوار كعادته في الأيام الأخيرة ، في حين كنت منهمكًا في تقشير البصل في المطبخ والمخاط يسيل من أنفي مخلوطًا بالدمع .. حين رن جرس الهاتف ..
خرجت للصالة لأجيبه وأنا أمسح أنفي في كتف البيجامة ومنظاري مكسوّ بالدموع ..
ومن الهاتف دوى صوت (طلعت) زوج أختي صارخًا :
ـ « كيف حالك يا دكتور ؟ » .
أدركت أنه يتحدث من الهاتف الوحيد بقرية (كفر بدر) الموجود عند العمدة .. وهو من نوع الهواتف التي تعمل بالـ (مانفللا) ، وترغمك على الصراخ حتى ليسمعك الطرف الآخر دون هاتف ..!..
أخذ يسألني عن كل من بطرفنا .. وأنا أرد في اقتضاب أن أحدًا لم يمت بعد للأسف ..، وهنا صاح في مرح :
ـ « هل ما زال (الأخرس) عندك ؟.. لقد سأل عنه أخوه أمس ! » .
ـ « أخ .. أخوه ؟! » .
ضحك ـ من قلبه ـ وبدأ يفسر لي (ضربة المعلم) التي حققها :

- « أمس كنت مع الحاج (محمد السقا) حين مرّ علينا سائق لورى صديق من القرية المجاورة وسأل عن شاب غريب الملامح وفد على قريتنا من شهر أو أكثر .. قال لنا إنه يبحث عنه لأنه شقيق (التبّاع) الذى يعمل معه ، وهو فتى يشبه صاحبنا تمامًا فى ملامحه .. وإن كان يتكلم قليلًا .. وقد قال إنه يبحث عن أخيه فى (كفر بدر) لأنه ضاع منه منذ شهور .. » .

كان مخى يغلى بالحمى بينما (طلعت) يواصل حكايته :

- « الغريب أن هذا (التبّاع) هو نفسه غريب الملامح غريب الأطوار ظهر فجأة فى تلك القرية ، وأراد سائق اللورى أن يكسب فيه ثوابًا فأخذه ليعمل معه .. وتطوع ليساعده فى البحث عن أخيه ..! » .

فتحت فمى لأسأل السؤال الذى سأجن لو لم أسأله :

- « وهل .. هل أخبرتماه عن (الأخرس) ؟! » .

- « بالطبع .. وماذا تظن ؟.. إن الإنسان قلما يجد فرصة ملائمة لعمل الخير كهذه الفرصة ! » .

- و ... و ... أخبرتماه بعنوانى فى القاهرة ؟ » .

ضحك فى فخر .. وصاح :

ـ « طبعًا .. وكتبته له على ورقة صغيرة .. سيكونان عندك اليوم أو غدًا على الأكثر .. ولكن ماذا حدث يا دكتور ؟.. هل أنا أتوهم ما أسمعه أم أنت حقًّا تبكى ؟!! » .

!.............

...

★ ★ ★

٩ ـ (جينغ ـ تشا) ..

الفرار !.. الفرار ..!

تسلطت الفكرة على ذهنى فلم أستطع إيجاد سبيل لمنطقة ما سمعت ..، الفرار !.. إنه آت لداري أنا بالذات .. ذلك الكاهن الفاشل المتعصب المولع بالدماء والسلطة ..

إنه قد أجاد لعبته ..

فرّ ـ بمجرد وصوله ـ إلى القرية المجاورة، وذاب هناك بين القرويين بأسلوب شبيه بأسلوب (هن ـ تشو ـ كان)، ثم إنه بدأ يعمل على عربة لورى .. وحكى لسائقها قصته الحزينة .. قصة الأخ الضائع بين القرى باحثًا عن أخيه المتخلف عقليًا، ولم يملك السائق سوى أن يساعده وطبعًا كانت (كفر بدر) هى المرشحة الأولى للبحث .. وها هو ذا قد وجد ضالته دون جهد ..

وها هو ذا قد ....

ترررررررن !..

كأن جرس الباب قد أغلق دائرة كهربية تتصل بجهازى العصبى، فأجفلت ووثبت لأعلى مترًا .. ثم إننى استجمعت شجاعتى وانتظام ضربات قلبى .. ففعلت أول ما ينبغى عمله .. دسست قرصًا من الـ (نيتروجلسرين) تحت لسانى كى لا تخذلنى شراييني التاجية ..، واتجهت للباب عالمًا أن القادم ليس سوى (هن ـ تشو ـ كان) الذى لم أعطه نسخة من مفتاح الشقة .. سأحكى له كل شىء فورًا ..

ولم يكن القادم هو (هن ـ تشو ـ كان) ..

كان فلاحًا مشعث الشعر تحت طاقية صوفية قذرة، وكانت لحيته نامية وعلى جسده جلباب بال ..، وقبل أن أسأله عن مرامه أدركت دون جهد أنه هو ..!..

(جينغ ـ تشا)!.. أعرف هاتين العينين الضيقتين والبشرة الصفراء والوجنتين البارزتين ..، إن من يحمل هذه السمات لا يمكن إلا أن يكون آسيويًا .. وبالتحديد من منطقة التبت .. وللدقة لابد أن يكون هو (جينغ ـ تشا) !.. من غيره ؟!..

قبل أن أقرر ما أفعل، لمحت عينيه الباردتين القاسيتين تنظران لوجهى فى ثبات .. وفى صوت غليظ تساءل :

ـ « داكتر ريفات ؟! » .

- « نعم .. نعم .. دكتور (رفعت) .. هذا أنا .. » .

ومددت يدى لأغلق الباب فى وجهه ..

وهنا لا أذكر ما حدث ..

لقد كانت انعكاسات هذا الفتى تفوق القدرة التحليلية لخلايا شبكيتى .. ولا يمكن فهم ما حدث إلا بتصوير المشهد بكاميرا سينمائية تدور بسرعة ألف كادر فى الثانية ، يتم بعدها عرض الفيلم بسرعة أربعة وعشرين كادرًا ..

فجأة وجدت نفسى مُلقى فى ركن الصالة .. وكان هو قد دخل الشقة وأغلق الباب خلفه .. بل حطم منظارى ..!

لم أستشعر ألمًا لأن الذهول أضاع كل ألم ..، ومضيت أراقبه فى توجس وهو يدور فى أركان الشقة باحثًا فى كل غرفها عن شىء ما .. ثم رأيته يعود لى ويقف أمامى .. ويصرخ بصوته الغليظ :

- « (هن - تشو - كان)؟! » .

لم أر فائدة من التظاهر بالجهل .. فقلت ململمًا أشلاء كبريائى المبعثرة :

- « خرج .. » .

نظر لى فى ريبة بضع ثوان .. ثم قرر - كما يبدو - أن يعقد لى امتحانًا سريعًا ..

وقال بتؤدة :

ـ « (شوكارا) .. أين ؟ » .

أدركت أنه شبه متأكد من أننى أجهل الموضوع ، فهو يتوقع ـ وهذا حق ـ أن الكاهن الأخير لم يصارحنى بمكان الكتاب إن كان صارحنى بوجوده أصلًا .. وصممت أن أبدو بريئًا وغبيًا إلى أقصى حدّ ..

إلا أنه انحنى إلى جوارى .. والتقط بين إبهامه والسبابة بعض الشعيرات من سالفى .. وشدّها .. آآآآه!.. يا للألم !.. كأنه ينتزع جزءًا من مخى .. كُفّ عن هذا ..!.. كُفّ ..

ـ اسمعنى يا أسـ .. آه ه !.. أستاذ .. أنت رجل متحـ .. متحضر وابن ناس ويمكننا أن نتفاااااهم !.. آى ! » .

ـ « (شوكارا) أين ؟ » .

غريب هذا !.. هو واثق من أننى أجهل مكان الكتاب .. لكنه مصمم على تعذيبى إلى آخر درجة يكون بعدها واثقًا تمامًا ..

ـ « (شوكارا) .. أين ؟ » .

آى ..!.. كيف أخبر هذا المعتوه أن تعذيبه وصل للذروة وأن ما يتحمله الـ (نافاراى) ليس هو ما يتحمله شيخ فان مثلى ؟



إلا أنه انحنى إلى جوارى .. والتقط بين إبهامه والسبابة بعض الشعيرات من سالفى ..

- « (شوكارا) .. أين ؟ » .

ترررررن ! » .

جرس الباب !.. جاء فى وقته لأنه أجفل وأطلق سراحى - الفتى وليس الجرس - وتفكر فى الموقف هنيهة ..

ثم إنه نهض واتجه للباب ووقف خلفه .. ثم مدّ يده ليفتحه مبتعدًا عن مجال بصر من يدقّ الجرس ..

انفتح الباب ودلف منه الوجه المألوف الجديد لـ (هن - تشو - كان) .. فى يده كيس ملىء بالبيض ابتاعه من السوق وعلى ثغره ابتسامة الظفر كطفل بعثته أمه للسوق أول مرّة وعاد موفقًا ..

وفى مرح التفت ليحدث من حسبه أنا .. ذلك الذى فتح له الباب ..

وهنا التقت العينان .. وفهم كل شىء ..

وانغلق الباب محدثًا جلبة ..

★ ★ ★

ساد الصمت المكان فلا شىء سوى صوت أنفاسنا ..

ثم أن (جينغ - تشا) اقترب فى تؤدة من (هن - تشو - كان) وهو يبتسم فى لزوجة ..، وللمرة الأولى أرى الرعب فى عينى الكاهن الأخير .. نظرة فأر وقع فى المصيدة .. أو قط ترتفع حوله مياه الفيضان .. أو كلب تحيط به الأفاعى .. أو أفعى فى جحر المانجوست .. أو أى رعب تتخيله ..

بدأ (جينغ ـ تشا) يتكلم بلغة لا أعرفها ..
كان صوته غليظًا بطيئًا مليئًا بالسخرية والغرور والتوعّد ..
أما (هن ـ تشو ـ كان) فكان يردّ بعصبية وتوتر بينما المقت يلتمع فى عينيه .. كانا يتبادلان الاتهامات والسباب طبعًا ..

وهنا بدأت أستعيد صفاء ذهنى ..
حتمًا سيحدث صراع دموى ..، وليس لى أن أخشى شيئًا على (هن ـ تشو ـ كان) لأنه الأفضل تدريبًا .. لكن له نقطة ضعف واحدة .. هى أنا !..

نعم .. بالتأكيد سيحاول (جينغ ـ تشا) تهديد حياتى للضغط على خصمه ، وبالتالى لن يكون جبنًا منى أن أحاول الانسحاب فى صمت لأن وجودى سيزيد من متاعب الكاهن الأخير فقط ..
وببطء .. ببطء ببطء بدأت أزحف نحو باب الشقة ..
كانت محادثتهما مستمرة لهذا نسيا وجودى تمامًا ..
وفجأة بدأ الاشتباك ...
كنت عند منتصف الطريق إلى باب الشقة حين سمعت صوت سوط يشق الهواء فأدرت رأسى لأرى ..

لم يكن سوطًا بل هى ذراع (جينغ ـ تشا) التى امتدت تمزق الهواء تجاه بطن الكاهن الأخير ، وكانت أصابعه متخذة وضعًا غريبًا كالعنكبوت مما جعلنى أرجح أنها إحدى قبضاتهم السرية ..

وهنا أثار ذهولى ما حدث ..

لقد تقوس (هن ـ تشو ـ كان) للأمام قدر استطاعته مبعدًا تجويف بطنه عن القبضة ، ثم استعاد توازنه .. وتفادى ركلة شنيعة كادت تنسف رأسه ..

كان يتفادى .. يتفادى كأفضل ما يكون ..

★ ★ ★

« لو أن لصًا هاجم دارك فلن يمنعه (التفادى) من سرقتك .. لن يمنعه من إيذاء أمك العجوز .. لن يمنعه من تمزيق كتب صلواتك وسكب زيت الموقد .. » .

★ ★ ★

ـ « تشا سارايانا ! » .

صرخ (هن ـ تشو ـ كان) وهو يباعد ما بين ساقيه ..

وهنا لمحت لمحة من الذعر ترتسم على وجه (جينغ ـ تشا) ..

ـ « جوانغ سارايانا ! » .

صرخ الكاهن الأخير وهو يباعد ذراعيه عن جسده .. ثم أردف بالصيحة الأخيرة وهو يعيد رأسه للخلف (لقد صار هذا المشهد مملًا) :

ـ « كيو سارايانا ! » .

واندفع كالسهم الذى تحرر من قوسه نحو خصمه الأزلى ..

ما أروعه من مشهد !.. للمرة الأولى أرى قتال الـ (نافاراى) يدور بين خصمين متكافئين .. لم يكن (جينغ ـ تشا) بالخصم السهل ، وبدا لى أنه يعرف مكان واتجاه كل ضربة ويعرف كيف يتفاداها قبل أن تلمسه .. مزهرية ثمينة تتهشم .. ثم أخرى ..!

صحت فى هلع وأنا أقف فيما بينهما :

ـ « أتوسل لكما .. اصعدا إلى سطح البناية فهناك متسع للجميع .. » .

وهنا وجدت نفسى وقد طرت لأسقط على الأرض فى ركن الصالة وكل عظامى تئن .. من ضربنى ؟ ومتى ؟ وكيف ؟.. لا أدرى .. المهم أن الشخص العادى مثلى هو ذبابة إذا ما اشتبك مع هذه الوحوش ، ولربّما كان الأوفق لى أن أبادر بالفرار من هذا السيرك ..

ترررررن !..

جريت مترنحًا لأفتح باب الشقة .. فوجدت جارى الأستاذ (زكريا) مدرس الجغرافيا الذى يقطن بالطابق الأسفل .. وكان يرتدى البيجامة وطاقية صوفية ووجهه محتقن كالطماطم .. ويصرخ :

ـ « ماذا دهاك أيها المنحل ؟.. هل جننت ؟! » .

أدركت أن الجلبة التى أحدثها الصراع كادت تسقط السقف فوقه ..

قلت له فى رقة مفسرًا :

ـ « معذرة .. ولكن عندى كاهنين من الـ (نافاراى) من القرن السادس عشر ، وهما يتصارعان الآن .. أنت تفهم هذه الأمور ! » .

فتح فاه فى ذهول ليقول شيئًا .. وهنا فوجئ بـ (جينغ - تشا) يبرز من داخل الصالة حاملًا كرسيًا خشبيًا ثقيلًا وهو يعوى كالذئاب ويهوى به على رأس (هن ـ تشو ـ كان) الذى تلقى الكرسى على ساعديه .. فتهشم الخشب متناثرًا فى كل مكان ..

ـ « مجنون !.. كلكم مجانين ! » .

صاح فى ذهول وهلع وهو يولى الأدبار قائلًا كلامًا كثيرًا عن حياة العُزّاب .. وعن توقعه أن القيامة ستقوم فى موعد أقصاه هذا الشهر .. وعن الحكومة التى تترك أمثال هؤلاء ينعمون بالحرية ..

ولحقت أنا به وقد أدركت أن الوقت قد حان لذلك ..

هبطت خلفه درجات السلم ومعه دخلت من باب شقته ، فما إن أدرك أننى وراءه حتى صرخ فى عصبية :

ـ « ماذا تبغى أيها الأحمق ؟ » .

ثم صرخ فى ابنته الشابة التى هرعت بقميص النوم لترى ما هنالك :

ـ « وأنت !.. ادخلى غرفتك فورًا ! » .

صحت فى توتر محاولًا جعله يفهم الموقف :

ـ « أستاذ (زكريا) .. صدقنى .. ليس الوقت مناسبًا لأرائك الخاصة فى .. إن هذين الشابين فى شقتى سيقتل أحدهما الآخر .. يجب أن نطلب الشرطة فورًا .. » .

كان دوى المعركة فوق رءوسنا مستمرًا حين نظر لى الرجل فى حيرة .. ثم غمغم :

ـ « إذن هما ليسا من شلة السوء الخاصة بك ؟ » .

ارتفع الدم إلى رأسى :

ـ « أية شلة سوء ؟!.. هل سبق أن عرفت لى أصدقاء ؟!.. وأى سوء يُرجى من كهل أصلع مصاب بالربو والذبحة الصدرية مثلى ؟!.. هلم هات الهاتف قبل أن تغرق الدماء سلالم المبنى .. » .

بدا كأنه اقتنع .. فهرع يحضر لى التليفون وهو ينظر للسقف فى حيرة متوقعًا أن ينهار بين لحظة وأخرى ..

أدرت الرقم الرهيب ـ والمطمئن برغم ذلك ـ ١ .. ٢ .. ٢ .. وانتظرت برهة دون جدوى .. لا حرارة على الإطلاق ..

إن المصائب لا تأتى فرادى ..
سأحاول طلب الشرطة من شقة اللواء (محمد حليم) إذن ..
هرعت للباب على حين وقفت الفتيات الخمس ـ بنات الأستاذ (زكريا) ـ يرمقن المشهد فى حيرة ، فصاح فيهن أن يدخلن حجراتهن كأنه يهش ذبابًا ، وعند الباب توقفتُ وتراجعت خطوة للوراء ..
لقد أدركت أننا فى مأزق ..
مأزق حقيقى ..
كان هناك شاب آسيوى الملامح ، يرتدى قميصًا وبنطلونًا مُتسخين ، يقف على باب الشقة حاملًا نصلًا كئيب الشكل ..
وفى تؤدة أشار لى أن ألزم مكانى ولا أتحرك ..!..
ـ « ما هذا ؟.. من هو ؟.. » .
تعالت الصيحات متسائلة .. أما أنا فأغلقت الباب وعدت إلى داخل الشقة وأشعلت سيجارة وأنا أجلس على الأريكة مُفكك الأوصال .. إذن لم يأتِ وحده !
ـ « د . (رفعت) .. من هذا الرجل ؟.. ماذا يريد؟ » .
رفعت رأسى ببطء شديد وكأننى كنت أحلم ..
وفى غموض همست :
ـ « لقد جاءوا خلفه ! » .

★ ★ ★

١٠ ـ الخاتمة ..

لقد جاءوا خلفه ..!

لم يكن (جينغ ـ تشا) هو الوحيد الذى اجتاز الزمان والمكان باحثًا عن الكاهن الأخير .. بل تبعه بعض رهبان الـ (ماهايانا) ليشدوا من أزره .. لا يحتاج المرء لكثير ذكاء كى يدرك أننا محاصرون ..

ربّما البناية كلها محاصرة ..

وهذا يعنى أننا رهائن مُسخَّرة للضغط على (هن ـ تشو ـ كان) كى يسلم الكتاب الثمين لهم، ولقد لعبوا لعبتهم بذكاء حق .. أدركوا أن الكاهن الأخير لن يُهزم .. وإذا هُزم فلن يستسلم ولن يتكلم ..

ولم تكن هنالك سوى طريقة واحدة للضغط عليه، تلك الطريقة التى فررتُ من شقتى كى لا أمنحها لـ (جينغ ـ تشا) .. استخدام الآخرين ..

الهاتف ؟.. هل نسيت أنه معطل ؟.. وأنهم هم معطلوه دون أدنى شك ...

لقد فهم هؤلاء الأوغاد مفردات عصرنا وأهمية الهاتف بسرعة ..، أسرع مما ينبغى فى الواقع ..

والآن .. أملنا الوحيد هو أن نغلق أبوابنا وأن نرجو التوفيق للكاهن الأخير فى معركته المصيرية التى تدور فوق رءوسنا .. ربّما لو سلم لهم الكتاب تكون هنالك فرصة ..

لكنى أشك كثيرًا فى ميول هؤلاء السادة السلمية .. ولا أعتقد أنهم سيشكرونه ويوجهون لنا عبارات الاعتذار وينصرفون ..

المصيبة الحقيقية هى أننى من جلب هذه المصيبة للبناية ..، والآن تواجه عشر أسر ورطة لا مفر منها فيما يبدو ..

★ ★ ★

والآن حان الوقت كى أتمنى لكم ليلة سعيدة وأترككم ..!

أرى بعضكم يشد كمى .. وأسمع بعضكم يتساءل : وماذا حدث بعدها ؟.. هل أنتم حقًّا مهتمون بذلك ؟.. كنت أعتقد أنكم لن تجدوا ما يثير فى حصار بعض البوذيين لسكان بناية بينما يتصارع كاهنان فى إحدى الشقق .. ليكن لكم ما تريدون ..

سأحكى ما حدث بالتفصيل ..

لكنها قصة طويلة ، وقد قاربت الليلة على الانتهاء ..
إن النوم شيء حيوى للشيوخ مثلى ..
ربّما فى الليلة القادمة .. أو ربّما ليلة أخرى أستكمل القصة .. قصة العجلة الثمانية ومومياء (شيان - قه) الراقدة بين الثلوج ورقصة الموت .. و ... و ...
لكن هذه قصة أخرى .

د . رفعت إسماعيل
القاهرة ١٩٩٣

ملف المستقبل

سري جداً!!

صدر من هذه السلسلة :

١ . أشعة الموت .
٢ . اختفاء صاروخ .
٣ . مدينة الأعماق .
٤ . غزاة الفضاء .
٥ . القنبلة الغامضة .
٦ . زائر من المستقبل .
٧ . جنون طائرة .
٨ . الارتجاج القاتل .
٩ . صراع الحواس .
١٠ . الفارس المجهول .
١١ . منطقة الرعب .
١٢ . طريق الأشباح .
١٣ . الزمن المفقود .
١٤ . نداء النجوم .
١٥ . مثلث الغموض .
١٦ . الوباء الجهنمي .
١٧ . نبض الخلود .
١٨ . ظلال الفزع .
١٩ . عيون الهلاك .
٢٠ . العقول المعدنية .
٢١ . أطياف الماضي .
٢٢ . ليلة الرعب .
٢٣ . بصمات السحرة .
٢٤ . الضوء الأسود .
٢٥ . صحوة الشر .
٢٦ . لعنة الفضاء .
٢٧ . الفخ الزجاجي .
٢٨ . النهر المقدس .
٢٩ . الإيقاع المفترس .
٣٠ . النار الباردة .
٣١ . رنين الصمت .
٣٢ . الأفق الأخضر .
٣٣ . حارس الأرواح .
٣٤ . وحش المحيط .
٣٥ . مرآة الغد .
٣٦ . الموت الأزرق جـ١ .
٣٧ . السماء المظلمة جـ٢ .
٣٨ . من وراء النجوم جـ٣ .
٣٩ . الثلوج الساخنة .
٤٠ . علامات الخوف .
٤١ . مملكة النار .
٤٢ . الأرض الثانية .
٤٣ . ثقب في التاريخ .
٤٤ . الخارقون .
٤٥ . السحاب الأحمر .
٤٦ . الكوكب الملعون .
٤٧ . المقاتل الأخير .
٤٨ . سجن القمر .
٤٩ . غزو الأرض .
٥٠ . الأسطورة .
٥١ . الخلية القاتلة جـ١ .
٥٢ . العدو الخفي جـ٢ .
٥٣ . أمطار الموت .
٥٤ . عبر العصور جـ١ .
٥٥ . أسرى الزمن جـ٢ .
٥٦ . شيطان الأجيال جـ٣ .
٥٧ . منطقة الضياع .
٥٨ . معركة الكواكب جـ١ .
٥٩ . جحيم أرغوران جـ٢ .
٦٠ . أرض العمالقة .
٦١ . الكابوس .
٦٢ . سادة الأعماق جـ١ .
٦٣ . المحيط الملتهب جـ٢ .
٦٤ . السيف البلوري جـ١ .
٦٥ . أبواب الموت جـ٢ .
٦٦ . الشمس الزرقاء .
٦٧ . شيطان الفضاء .
٦٨ . عقول الشر .
٦٩ . العالم الآخر .
٧٠ . الستار الأسود .
٧١ . أمير الظلام .
٧٢ . ابن الشيطان جـ١ .
٧٣ . مبعوث الجحيم جـ٢ .
٧٤ . الصراع الجهنمي جـ٣ .
٧٥ . الجولة الأخيرة جـ٤ .
٧٦ . الاحتلال جـ١ .
٧٧ . المقاومة جـ٢ .
٧٨ . الصراع جـ٣ .
٧٩ . التحدي جـ٤ .
٨٠ . النصر جـ٥ .
٨١ . رمز القوة .
٨٢ . حصن الأشرار .
٨٣ . أرض العدم .
٨٤ . كنز الفضاء .
٨٥ . الأمل الفيروزي .
٨٦ . الامبراطور .
٨٧ . نصف آلي .
٨٨ . الانفجار الحي .
٨٩ ـ البركان .
٩٠ ـ رعب في الأعماق .
٩١ ـ ضد الزمن .
٩٢ ـ الرحلة الرهيبة .
٩٣ ـ نقطة الصفر .
٩٤ ـ الساحر .
٩٥ ـ القوة السوداء .
٩٦ ـ بذور الشر .
٩٧ ـ لهيب الكواكب .
٩٨ ـ نيران الكون .
٩٩ ـ الانفجار .
١٠٠ ـ الزمن : صفر .

رجل المستحيل

صدر من هذه السلسلة :

زهور

سلسلة رومانسية رفيعة المستوى

صدر من هذه السلسلة :

٤٧ - رجل وقلبان .
٤٨ - الحب الجريح .
٤٩ - الحب والاختيار .
٥٠ - وابتسمت الحياة .
٥١ - اللقاء الأخير .
٥٢ - عودة الغائب .
٥٣ - أمواج الحب .
٥٤ - معك دائما .
٥٥ - إغفر لى .
٥٦ - لقاء فى الغروب .



إدارة العمليات الخاصة

المكتب رقم (١٩)

صدر من هذه السلسلة :

روايات مصرية للجيب



سلسلة نوفا للخيال العلمى

قصص من عالم الغد

رءوف وصفى

★ تحت الطبع ★

رقم الإيداع : ١٦٠٦